جيفرسون

المناضل للحرية

منشىء وثيقة استقلال الولايات المتحدة الاميركية

تأليف
جين. ايزيتسكي

ترجمة
الدكتور رياض بارودي

١٩٥٣

obeikandl.com

obeikandl.com

الطبعة الاولى آذار ١٩٥٣

obeikandl.com

obeikandl.com

توماس جيفرسون

obeikandl.com

عالمان

●

كانت مستعمرة فرجينيا وقتئذ منقسمة الى شطرين متباينين كأنهما لا يشكلان بلادا واحدة، وكانت تبدو كأنها قطة كبيرة قد لمست طرفها الغربي بكفها الكبيرة فخدشت مخالبها ارضها الرملية ورسمت خطاً طويلا لسلاسل جبالها المتوازية ، المدعوة جبال آبلاشيان التي يعلو قسمها الشرقي سلسلة الجبل الازرق . من هنا تنبع جداول فرجينيا في طريقها الى البحر مارة بارض تلال واطئة تدعى (بيادمونت) ، حتى اذا بلغت منتصف الطريق شرقاً صارت البلاد سهلا منبسطاً شديد الانحدار نحو سطح البحر . كانت هذه الاودية مع مجاري الانهر الواطئة فيما مضى عرضة لغزوات مياه المد المالحة وما تزال هجمات المد اليوم تعلو مياه انهرها الاربعة احياناً دافعة مياهها للعودة راجعة ؛ لذلك سمي قسم البلاد الشرقي منطقة المد .

على هذا القسم بنى سكان البلاد الاولون منازلهم، محولين ضفاف الانهر واوديتها الى مزارع يشغلها العبيد. كان في مقدور مراكب تلك الايام ان تصعد الأنهر حتى ابواب المنازل ، تحمل احدث الكتب والجرائد من انكلترا ، واحدث الاساليب والنكات من

لندن ، والمخترعات والمبتكرات من ليفربول ، وترجع ناقلة احمال الدخان والرسائل والانباء مع الذاهبين لتمضية ايام العطـــلة في الوطن الأم .

كان مزارعو منطقة المدهذه، وهم من الانكليز بالدرجة الاولى، يحرصون على اتصالهم بالوطن الواقع على بعد ثلاثة الاف ميل غير مكترثين بـ (نيويورك) و (بوسطن) الواقعتين على الساحل ذاته .

كاد الساحل الشرقي اخيرا يمتلىء بالنزلاء ، فاخذ المستعمرون الجدد يندفعون رويداً رويداً نحو الغرب مصعدين في مرتفـــات (بيادمونت) . هنا كانت الانهر ضيقة وسريعة وقليلة الغور لحمل المراكب ، وكانت اخبار الخارج قلما تصل جديدة وملذة وذات اهمية ، عدا عن ان المواصلات والبضائع كانت تواجه الكثير من متاعب النقل واخطاره. هنا بنيت الاكواخ بدلاً من البيوت ذات الطابع الانكليزي ، واستبدلت المزارع الواسعة بفسحات ضيقة مقطعة من الغابات . هكذا جعلت ظروف هذه البيئة من سكانها قوما مغامرين مجاهدين (اميركيين) لا انكليز ، وبذلك شُطر السكان الى شعبين مختلفي العقيدة. هكذا كانت حالة فرجينيا عندما نشا وترعرع فيهـــا والد توماس جيفرسون : في الشرق يسكن الساحليون المدعوون (توكاهوز) وفي الغرب ينزل سكان المرتفات المدعوون (كوهيز) . اما جيفرسون وابنه فقد كانا من الذين عملوا على توحيد الشعبين وازالة الاختلافات بينهما .

ولد والد الرئيس الثالث في الولايات المتحدة عام ١٧٠٧ في مقاطعة (تشسترفيلد) الواقعة على منتصف الطريق بين الساحل

والمرتفعات . كانت الاسرة (اميركية) منذ اجيال مضت، لكنها لم تكن قد تملكت مزارع واسعة .

لم يتلق (بيتر جيفرسون) اية علوم مدرسية في حداثته، لكنه كان قد قرأ الكثير من مؤلفات عصره ، ليس الادبية فقط بل العلمية والفنية ؛ وقد علم نفسه الرياضيات العالية ، حتى انه جاز الامتحان الذي جعله مهندس المحافظة . وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره عين فيما على محافظة كوتشلاند حيث كان يعيش . ومع ان عمله كمحافظ لم يكن يتعدى حدود تلك المحافظة فان نفوذه ذاع فوق الولاية كلها ، وبذلك تعرف على السيد وليم راندولف الذي صار فيما بعد اعز صديق له . كان وليم ينتمي الى جماعة (توكاهوز) وقد ورث عن ابيه مقاطعة سميت صدفة توكاهو .

في السنة ١٧٣٧، عندما كان بيتر جيفرسون في الثلاثين من عمره المت بالبلاد إحدى النكبات التي كانت تنزل على البلاد بين حين وآخر، مثل ادوار الحمى ، فاضطر جيفرسون وراندولف الى الرحيل غرباً على مجرى نهر جيمس للتفتيش عن مزارع جديدة ، وفي طريقهما غرباً مرّا على محلة (دنجينز) حيث كانت مزرعة (ايشام راندولف) عم وليم ، عند ملتقى جدول ريفانا ، بنهر جيمس ، ولبثا في ضيافته مدة يتفرجون على مزرعته الأنيقة المنظمة التي كان يعمل فيها مئة عبد ، كان ايشام عالماً من علماء الطبيعة والنبات . هنالك وجد بيتر كثيراً من المغريات الى جانب اعجابه بابنة البيت الكبرى . تابع الرجلان رحيلهما صعوداً على جدول ريفانا فبلغا فسحة من الارض عند منبع الجدول مناسبة وغير مملوكة فاقتسماها سوية، لكل واحد

قطعة على جانب وجعلا النهر فاصلاً بينهما . ثم ان وليم عاد ومنح بيتر حق تملك اربعمئة فدان ، في قسمه ، تبين انهـا كانت مناسبة لبناء مسكن له . كان بيتر جيفرسون ووليم راندولف الثالث والرابع في سلسلة اول من سكن تلك المنطقة . كان هدفهما المباشر تهيئة الارض بسرعة لانتاج الحنطة والتبغ وتأمين العدد الكافي من العبيد والعمال لقطع الاشجار وازالة الاعشاب وحراثة الارض ، وهكذا مع المثابرة والعمل المتواصل الشاق تيسرت كل الامور . واخذت زيارات بيتر لمحلة (دنجينز) تتكرر بتنقله بين الريفانا وكوتشلاند الى ان تزوج (جين راندولف) ابنة ايشام عام ١٧٣٩ وهي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها . وبذلك صار وليم راندولف وبيتر جيفرسون ابناء عم الى جانب صداقتهما المتينة .

بادر بيتر الى تهيئة مسكن عائلته فبنى بيتاً على القطعة التي منحه اياها وليم على ضفة الريفانا الشمالية ، ودعاه (شادويل) باسم الزقاق الذي كانت زوجته قد ولدت فيه بلندن . في هذا المنزل ، وخلال عهد مكافحة الغابات وقوى البرية ، رزق بيتر اربعة اولاد ، ثلاث بنات وصبياً ، جين وماري وتوماس واليصابات .

وفي سنة ١٧٤٤ ، كانت ناحية (شادويل) قد اصبحت مكاناً آهلاً بالسكان ، فافرزت وسميت محافظة (البيمارل) ، ولما كانت المحافظة تتطلب سلطة وموظفين فقد عين بيتر جيفرسون بصفته من اقدم وانزه نزلائها مأموراً للأمن ، واسند الى وليم وظيفة القيم العام (قائمقام) . وقد كان على كل مستعمرة امامية مثل فرجينيا ان تحتفظ بقوات عسكرية الى جانب قوى الامن المدنية ، اذ ان خطر

السكان الحمر كان لا يزال ماثلا ، والفرنسيون في ولاية اوهايو لم يكونوا مطمئنين . وهكذا شغل جيفرسون في الوقت ذاته مهمة الليوتنان كولونيل على الميليشيا بقيادة المدرب (يشوع فراي) الاستاذ في كلية (وليم وماري) .

وفي سنة ١٧٤٥ عندما كان توماس جيفرسون في الثانية من عمره ، توفي وليم راندولف تاركاً لبيتر صديقه العزيز وابن عمه ، رجاء وحيداً هو ان يعنى بتربية اولاده الثلاثة ، لاسيما مسألة تعليم ابنه الصغير توماس مان راندولف ، وكان على بيتر ، لاجل اتمام هذا الرجاء على اكمل وجه ، ان ينتقل مع عائلته الى توكاهو المقاطعة التي يملكها راندولف ؛ وبناء على ذلك انتقل بيتر وعائلته الى منطقة كوشلاند .

كم انتفض قلب مسز جيفرسون فرحاً عندما أطل النازحون يجتازون مدخل القرية ، وسط اشجار الدردار ، فقد مرّت ست سنوات على تركهـــا ذلك البيت العتيق المحبوب المحاط بجنائنه الانكليزية المملوءة وروداً وزنابق وازهاراً ! ولما بلغوا البيت وجدوا انفسهم على كتف تلة كثيفة تشرف بروعة كلية على مجرى نهر جيمس وما يحيط به من المزارع .

كان في توكاهو الآن سبعة اولاد تكفي لتأمين كثير من السلوى ومن ثم لتشكيل مدرسة . فالى جانب توم كانت اخته الكبيرتان جين وماري واخته الطفلة اليصابات . واولاد راندولف الثلاثة جوديت وماري وتوماس مان . اما المدرسة فكانت على مقربة من ضاحية القرية . هنـا بدأ توم في الخامسة من عمره يتعلم

القراءة والكتابة والرقم .

ظل توم جيفرسون سبع سنوات في توكاهو يتعلم كي يصير مهذبا ، الى جانب ما كان يتلقى برفقة والده من ضروب الشجاعة والفروسية فقد نشأ حبه للحياة في محيط جذاب .

كان التبغ سر وجود ذلك المحيط الزراعي العامر اذ ان الطلب عليه كان شديدا من اوربا، وكان معظم معاش الفرجينيين يتوقف على تصديره الى انكلترا ؛ اما في المعاملات المحلية، فان كميات التبغ كانت تؤخذ وتعطى مثل النقود . لكن مزارع التبغ الواسعة كانت تتطلب الكثير من الايدي العاملة ، ووجود هذه الايدي كان صعبا جدا في مستعمرة تخول كل رجل ان يصير مالكا حرا مثل بيتر جيفرسون ، لذلك كان العبيد يقطعون من مكامنهم في افريقيا ليباعوا في فرجينيا .

وفي توكاهو ولد لعائلة جيفرسون اختان مرتا ولوسي ، وصار الان بامكان بيتر ان يرجع الى مزرعته في شادويل بعد ان أتم وصية صديقه راندولف ، بينما كان توم قد تجاوز التاسعة وصار بوسعه الانصراف الى العلوم المدرسية العالية. في السنة ١٧٥٢ ارسل بيتر ابنه الى دير في ولاية (لويزا) ليتعلم من القس وليم دوغلاس اللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية ، اما بقية العائلة فانتقل بها راجعا الى مقاطعة البيمارل ، ثم انه لم يلبث حتى ارسل الى مجلس ممثلي المستعمرة نائبا عن تلك المحافظة ، وفي السنة ١٧٥٥ جعل حاكما لمقاطعة البيمارل .

اما توم فانه رغم اجتهاده المدرسي فقد ظل يتطلع نحو الفرص

التي كان يمضيها في شادويل بشوق زائد . اخذ يبدو الان غلاما طويلا مقداما محبا للرياضة وحياة الفلاة، فلم يكن صعبا على الحطاب جيفرسون ان يجعل طفولة ابنه بهجة مسرة ، ويجعل من شادويل اجمل بقعة له في العالم، يتمرن فيها على ضروب الفروسية والتجذيف والقنص ، ويمن النظر الى جمالات الطبيعة النادرة الوجود .

لكن القدر لم يمهل بيتر عمراً طويلا بل توفاه في السنة ١٧٥٧ . وصار على توم البالغ الرابعة عشرة ان يرئس العائلة المؤلفة من امه وشقيقاته الست وشقيقه الاصغر الطفل راندولف . كان الوالد قد أوصى للطفل الاصغر قطعة من الارض على نهر جيمز تدعى سنودن، وأوصى بحلة شادويل لابنـــه الاكبر . وهكذا صار توم ملاكا كبيرا ، لكنه كان عليه ان يظل تحت وصاية احد اصدقاء والده الاوفياء (جون هارفي) ريثما يبلغ سن الرشد .

كان من اهم وصايا الاب جيفرسون ان يتلقى توم تعليما منتظما عاليا، فبادر الوصي وأرسله الى معهد القس جيمس موري المعروف في ولاية (لويزا) على بعد ١٤ ميلا من شادويل ، حيث انصرف الى تعلم اللاتينية مدة السنتين التاليتين . ثابر الولد على تمضية العطل المدرسية في البيت ، ومع انه كان قد فقد صحبة والده المحب فان تلك العادات الحسنة التي كان الوالد يشجعه عليها كالتجوال وسط الغابات مـــع بندقيته والركوب بين المزارع والحقول لم تفارق حياته . كانت صداقته لشقيقته الكبرى (جين) تزداد وثوقا بمرور الزمن، اذ انهما كانا يصرفان الساعات يلعبان على الآلات الموسيقية يلحنان الانغام ويترنمان التراتيم والمزامير . ثم ان جيفرسون وجد

في الفتى (دابني كار) جارا صديقاً مخلصاً يتعزى به ويستعين برفقته عـــلى وحدة تلك الايام . كان يصحبه عبر النهر من شادويل الى المقاطعة التي كان بيتر قـد اختارها اولا حيث كانت تلة جميلة يبلغ ارتفاعها نحو ستمئة قدم ، وكان قد بلغ من تأثير المكان الساحر على روحيهما انهما اعتزما ان يبنيا عليها في المستقبل بيتاً يكمل قمتها ويكون رابطاً ابدياً لصداقتهما ، ورمزاً لحبهما ؛ وقد تعاهدا على وجوب دفن جثة الواحد منهما هنالك الى جانب جثة الآخر تحت سنديانة كبيرة .

في كلية « وليم وماري »

●

لم يكد توم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى التحق بكليـــة (وليمز برج) المدعوة (وليم وماري). كان في المستعمرات آنئذ كليتان غير هذه : كلية (هارفر) في ماساتشوست وكلية (يال) في كونكتيكت ، ولكن عادة الجنوبيين كانت تقضي بالتوجـه الى وليمز برج للدراسة العالية .

كانت البلدة اكبر مجتمـــع يراه توم في حياته ؛ كانت عاصمة فرجينيا ومؤلفة من نحو مئتي بيت خشبي ، لان بنـاء البيوت من الحجارة والقرميد كان يحسب آنذاك غير صحي . كان يخترق البلدة شارعها الرئيسي العريض ، البالغ ثلاثة ارباع الميل ، وتقع الكلية عند طرفه الاول وبناية الكابيتول (السراي) عند طرفه الآخر ، وفي وسطه مربع يحوي كنيسة وبعض الابنية العامة . على ان الكلية لم تكن شيئاً غريباً عند توم يوم دخلها ، اذ ان عماً له كان مرة رئيساً لها وكان هو ما يزال يتذكر شيئاً عن تاريخها الروائي .

ذلك انه عندما قام الملك جيمس بزيارة للاميرة الهنـــدية (بوكاهونتا) رغب بتشييد مدرسة لها هناك ، يتعلم ابناء شعبها فيها ؛ لكن الهنود عادوا وذبحوا جميع الافراد المرسلين من قبل الملك

لبناء الكلية والتدريس فيها .

واعيد تأسيس الكلية بعد ذلك بسبعين سنة فكانت ، عند ما جاءها توم ، منقسمة الى ثلاث مدارس : المدرسة الاصلية ، وهي ابتدائية هندية تحوي معلمين وثمانية تلاميذ داخليين عدا عن الخارجيين ، والمدرسة العالية التي يدخلها الطلاب بعد سن الخامسة عشرة وهي تعلم اليونانية واللاتينية بواسطة اثنين من المعلمين ، واخيراً بناء الكلية لتدريس العلوم والفنون العليا ويعلم فيها اثنان من الاساتذة الى جانب الرئيس . اما غرف التدريس للأقسام الثلاثة فكانت في بناية واحدة .

كان على توم ان يقدم امتحاناً عاماً قبل الدخول وقد جاز الامتحان بنجاح ظاهر حتى انه قبل في الصف العلمي الثالث (جونيور) .

اخذ يلتهم الدروس برغبة متزايدة ، اذ انه وجد في الواجب العلمي مغامرة جديدة تتطلب المجهود الفكري قبل الجسدي ، وكان يرى في اكتشافات الآراء الجديدة والحلول العلمية والافكار الثاقبة والمسائل الفقهية لذة تفوق مغريات الطبيعة والغابات والصيد وسباق الخيل .

على ان منهاج المواضيع المطلوب درسها لم يكن مشوقاً على الغالب ، واستمر الامر كذلك حتى كاد توم يفقد رغبته الجامحة نحو العلم لو لم يحدث ان يكون بين اساتذته الدكتور (وليم صمول) الذي كان يدرسه فلسفة الطبيعيات كالرياضيات والفيزياء والفلك . اما الاستاذ الآخر فكان يعلمه مبادىء الفلسفة الادبية والمنطق وعلم الاخلاق .

كان الاستاذ صمول قد ادخل وهو بعد في اسكوتلندا ، اسلوباً جديداً على مناهج التعليم وضبط الصفوف . فقد كان طلبة الكليات آنذاك يحفظون الدروس المعينة غيباً ويسمعونها في الصف امام المعلم ، اما السيد صمول فابتكر طريقة المحاضرات ، وذلك انه كان يلخص الموضوع ويشرحه بنفسه ثم يمنح السامعين حق الاستفهام والقاء السؤالات . ولم يلبث صمول طويلا حتى لحظ على الفتى ذي الشعر الاشقر والعينين الرماديتين ، الذي كان لا يفتأ يلقي السؤال تلو السؤال ، ذكاءً ، فاخذ يتقرب اليه خارج الصف ويحادثه ويماشيه حتى بات رفيقه الدائم في نزهاته وزياراته ؛ وبذلك انفتح امام توم باب عالمٍ جديد . كان صمول صديقاً حميما لـ (ايراسموس دارون) العالم الطبيعي المعروف وجد شارلس دارون ، كذلك كان جيمس واط مكتشف المحرك البخاري صديقاً له ايضاً ، وبذلك استطاع توم ان يلمس في حديث معلمه عظمة الاثر الذي يتركه العلم في سير وتطور العالم الذي نحيا فيه .

كان منزل الضابط فرانسيس فوكيير حاكم مستعمرة فرجينيا قريباً من دور الكلية ، وكان هذا صديقاً للسيد صمول فلما عزم الاستاذ على تعريف تلميذه ورفيقه به استطاع الطالب ان يتميز في الحاكم مثالا كاملا لادب القرن الثامن عشر الذي كان يتحكك بكل شيء ويسر من كل شيء . كان قبلا مديراً لبنك انكلترا ، وقد كتب مؤلفاً هاماً عن الضرائب ، كما كان مولعاً بعلم الفيزياء وعضواً في الجمعية الملكية العلمية وموسيقيا مطبوعا ؛ كان يتصف بكل ما يريده توم ... لقد بدا فوكيير منشرحاً بالتعرف الى توم

كما كان توم نفسه منشرحاً بالتعرف اليه ، ولما علم انه يحسن اللعب على الرباب صار يدعوه للمساهمة في الحفلات الموسيقية التي كان يحييها في قصره كل اسبوع .

كان توم يقتبس من ذلك الحاكم الصفات والعادات التي لم يكن بوسعه ان يقتبسها عن معلمه صمول او عن اي معلم آخر ، واتخذ له من سيرته مثلا اعلى للرجل الكامل . كان يعجب ببشاشته الدائمة ولطفه وكياسته وسهره على غرفة التصوير التي كانت تشغل اهمية خاصة من عناية ابناء ذلك العصر .

ثم ان السيد صمول قدم توم الى صديق آخر له يدعى (جورج ويث) وهو محام لامع في نحو الثلاثين من عمره ومن اقدر علماء اللغتين اللاتينية واليونانية في فرجينيا ، وهكذا كان هؤلاء الاربعة ، فوكيير ، وصمول ، وويث ، وجيفرسون ، يجتمعون كل اسبوع مرة حول مائدة الغداء في قصر الحاكم .

وكان لتوم عدة اصدقاء ايضاً من رفاق الكلية ، وصديقه القديم دابني كار الذي حضر الى وليمزبرج وبعض اقارب امه الساكنون في البلدة ، لكن اهم هؤلاء كان بيج الشاب النشيط الذي كان عليه ان يصير مثل جيفرسون ، احد حكام ولاية فرجينيا .

في طريق العودة الى البيت لقضاء العطلة كان توم يقف احياناً عند مزرعة تخص الكولونيل ناثان داندرج ، وهنا كان يلفت نظره رجل بين الناس ذو شعبية قوية ، مع ان ظواهره وحركاته لم تكن تنم عن شيء يستحق الالتفات من جانب الشعب ، لكن توم احس انه ينجذب نحو ذلك الشخص الطويل ، المنحرف القامة قليلا ، بوجهه

الاصفر وملامحه الهادئة وعينيه الجميلتين ، واخـــيراً علم انه يدعى باتريك هنري وانه جار الكولونيل داندريدج. كان مستر هنري قد ورث عن ابيه مبلغاً من المال اشترى به مخزنا للتجارة في القرية لكنه لم ينجح ، وقد حدث خـلال نزول توم عند الكولونيل ان عرى الصداقة توثقت بين توم وهنري .

تخرج توم من كلية (وليم وماري) في ٢٥ ايار سنة ١٧٦٢ وعمره تسع عشرة سنة . صار الان يتقن اللغتين اليونانية واللاتينية قراءة وكتابة ويفهم مؤلفاتها الشاقة بسهولة ، لكنه لم يكن يحسن التكلم بالفرنسية بل كان يقرأها جيدا ، وقـد وعد نفسه بدراسة اللغات الاسبانية والايطالية والالمانية والهندية والاميركية .

كان طوله الان ستة اقدام ينقصها انشان، رقيق البنية منحرف الوجه قليلا يعلو انفه نتوء صغير عند طرفه، سوى انه كان يستميل قلوب الناس لشدة ذكائه .

بليندا والقانون

●

وضع توم شهادته الجامعيـــة وراء ظهره واخذ يستعد لبلوغ امنيته المهنية وهي دراسة الحقوق (المحاماة) . لم يكن هنالك معاهد تدرس القانون بل كانت المحاماة تكتسب بالمطالعة والتمرن تحت اشراف احد اعضاء السلك . فكان على المتمرن ان يثابر على حضور جلسات المحاكم وتحضير اوراق المرافعـــات والمقابلات ، ويصرف ساعـات الفراغ بدراسة كتب القانون ومطالعة تاريخ الشرائع الى ان يتملك زمام المهنة عملياً ويحفظ مواد القانون ثم يقـدم امتحانا ينظمه بعض محامي الولاية ، فاذا نجح جاز له ان يتعاطى المهنة ويحمل الشعار المعروف . التحق توم بمكتب صديقه جورج ويث حالما رجع من عطلته . ولم يكن صعبا عليه ان يجتاز امتحان المحامـاة في سنة او سنتين فهو الذي اكمل دراسة الدبلوم بسنتين ، خصوصا وان صديقه باتريك هنري قد اجتازها بستة اشهر ، غير ان هنري ليس بنسبة توم من حيث التعطش للعلم وحب التعمق فيه ، اذ ان توم لن يقف عند حفظ القانون الفلاني والمادة الفلانية بل سيحاول الاستفهام عمن اشترع هـذا القانون ومتى كان ذلك وكيف ، وهل هو كامل بنصه الناقص وهل يؤدي حقوق الجميع

في كل الظروف ام لا ؟ . . فلاجل الاحاطة بجميع هـذه الامور اعتزم توم الا يتقـدم لامتحان المحاماة قبل خمس سنوات . وبينما هو في طريق الدرس والاستطلاع اذ بصديقـه دابني كار يصبح محاميا ، لكنه واظب على الدراسة بكل ثبات .

كان المجهود الذي يبذله توم يوميا للتحصيل والمطالعـة يعادل مجهود جامعة حقوقيـة تضم عدة طلاب واساتذة ، من حيث سعة المواضيـع المدروسة وتنوع فروعها وتعدد ادوارهـــا وتاريخ تطوراتها وسيرة مؤلفيها ... سئل جيفرسون مرة عن افضل منهاج للدراسة يستطيع طالب الحقوق اتباعه بذاته فقـدم صورة المنهاج الذي كان قد اعده هو لنفسه واليك خلاصته :

من الصباح لغاية الثامنة، مطالعة دروس في علم الفيزياء تتناول الزراعـــة والكيمياء والجراحة والنبات والحيوان والاخلاق والدينيات وناموس الطبيعة .

من الساعة الثامنة لغاية الظهر . قراءات في الحقوق .

من الساعة ١٢ لغاية الواحدة . علوم سياسية .

بعد الظهر: التاريخ القديم والحديث وتاريخ انكلترا وأميركا.

في السهرة : مقاطع شعرية وفنية ولغوية في الانتقاد والمديح والفروسية وغيرها .

والعجيب ان جيفرسون كان يجد الوقت الكافي ضمن هـــذا المنهاج للرياضة واللعب وسائر الواجبات الاجتماعيـة ، اذ انه منذ دخول الجامعة لغاية الوقت الحاضر ظل مواظبا على الاعتناء بمزارعه وتدبير عائلته وتدوين الملاحظات وركوب الخيل وزيارة الاصحاب

ولا سيما دائرة الحاكم فوكيير .

لم تكن دراسة الحقوق في وقت من الاوقات تستغرق اوقات غيرها من دروس الطلاب ، لأن فصلا واحداً من الحقوق باللغة اللاتينية او الفرنسية القديمة لا يستنفد من وقت الطالب النجيب اكثر من شهر واحد ، لكن توم لم يكن ليقف عند اتمام هذا الفصل بل كان يندفع وراء مراجعة منابع القانون المذكور في تاريخ انكلترا القديم ايام غزوات النورمان وفي عهد الملك الفرد الكبير . .

عندما بلغ توم الحادية والعشرين من عمره عمد الى تأدية اول خدمة اجتماعية لأبناء محافظته ، ذلك ان نهر ريفانا المار في ارضه لم يكن صالحاً للملاحة مع عمقه الكافي لسبب العوائق الكامنة في مجراه فكان الفلاحون يتكبدون متاعب جمة لنقل محاصيلهم الى الاسواق ، فانبرى توم وقدم عريضة بذلك الى مجلس الممثلين يصف الخسارة اللاحقة بالاهلين ، والح بوجوب اصلاح مجرى النهر ، فاجيب الى طلبه حالاً ، وكان هذا العمل حافزاً له على القيام بما هو اعظم فيما بعد .

كان في الشتاء يواظب على زيارة معلمه مستر ويث ويداوم على حضور المحاكمات ومطالعة الكتب وتنظيم مكتبته ، وثم زيارة اصحابه ورفاقه ، غير ان صديقه الاستاذ صمول كان الآن قد رجع الى انكلترا .

في سن الثانية والعشرين صرف توم معظم وقته في شادويل متابعاً منهاجه الدراسي والرياضي ، غير ان تلك السنة (١٧٦٥) كانت سنة مفاجآت على عائلة جيفرسون : فان دابني كار رفيق توم في الصيد تزوج مارتا اخته ، ثم بعد ذلك بشهرين توفيت جين

الأخت الكبرى التي كان توم يحبها فوق الجميع ، وكانت موضع سره ومكان ثقته . كانت صدمة محزنة حقاً ولم تكن في حسبانه .

اخيراً اكتملت سنوات توم الخمس ، وعرف كيف يصير محامياً وكيف يواجـــه واجباته الجسيمة ، فقدم الامتحان ونجح . وفي الســنـــة (١٧٦٧) ، في الرابعة والعشرين من عمره ، دخل سلك المحاماة .

مجلس ممثلي فرجينيا

●

عندما قدم توماس جيفرسون الى باتريك هنري كان قد اخبر ان هذا الاخير في طريقه الى وليمزبرج ليدرس قانون التجارة ، فاعتقد توم ان صديقه يكون الآن في بداية عهد دراسته الطويل ، غير ان هنري لم يكن يعتزم فعلاً تضييع الوقت بين الكتب بل انه لم يكد يصرف ستة اشهر حتى قرأ بضع مجلدات وجاء يطلب تقديم الامتحان ... ان القانون يخوله ذلك الحق اذا استحصل على تأييد ثلاثة اعضاء من السلك يوافقون على امتحانه .

وقد تمكن هنري من الحصول على موافقة ثلاثة محامين يؤيدون ترشيحه هم : جورج ويث صديق توم و بيتون راندولف وجون رندولف من انسباء توم ايضاً . تقدم الثلاثة يسألون الطالب مسائل مختلفة في القانون فوجدوه يجهله تماماً . فوجم ويث واخذته الدهشة اذ كيف يؤيد اعطاء شهادة المحاماة لواحد يجهل القانون !. اما العضوان الآخران فكانا اللين عوداً منه وقد تبينا في اندفاع الشاب وفي طلاقة لسانه عاملا فعالاً لدى القضاة كما كان لديهما. فابلغا هنري انهما يؤيدان طلبه اذا تعهد هو بحفظ ما فاته من القانون باقرب فرصة ، على ان يستميلا محامياً آخر للتوقيع معهما . فتعهد هنري

بالقيام بكل ذلك ، لكنه لم يستطع تنفيذ تعهده كاملا ، بل كان يدرس قليلاً ويلعب ويصطاد كثيراً . كان يستعير الكتب من توم ثم يعيدها اليه غير مفتوحة ، على ان ثقة بيتون واندولف بهنري تحققت اخيراً . ولئن كان هنري لم يستفد كثيراً من مطالعة الكتب فانه استفاد ولا شك عن طريق التمرن والمرافعات . فان مقدرته الخطابية وطلاقة لسانه تستطيعان تحريك مشاعر القضاة والمفكرين . في السنة ١٧٦٥ ذاعت شهرة هنري كمحام وما زالت في ازدياد حتى اوصلته الى مجلس الممثلين نائباً عن منطقته ! كانت الظروف في ذلك الزمن تجتاز ازمة عصيبة وقد احس هنري بان خير مكان يستطيع ان يشغله حينئذ هو عضوية مجلس ممثلي فرجينيا ، لان الهياج كان على اشده ضد قانون ضريبة التمغة .

كانت انكلترا ومستعمراتها قد تغلبت في حروبها على الهنود والفرنسيين سنة ١٧٦٣ ، لكن الحرب كانت قد كلفتها غالياً واثقلت ميزانيتها بالضرائب فارتأى الانكليز ان يحملوا مستعمراتهم الاميركية قسماً من هذه الضرائب باعتبار ان المستعمرات المذكورة قد استفادت فعلاً من انتصاراتهم . وهكذا اقر البرلمان الانكليزي قانوناً يقضي بفرض ضريبة تمغة باهظة على جميع معاملات التعاقد والمراسلات والبيع والشراء والاخذ والعطاء . .

ركب هنري حصانه وتوجه نحو (وليمز برج) ليأخذ مكانه في المجلس التمثيلي الذي كان مزمعاً ان يتناقش في مشروع القرار الانكليزي المذكور !

كان الضجيج ضد المشروع يملأ الافواه والاحتجاجات تصم

الآذان ، لكن العمل لم يكن قد ظهر من جانب احد . جلس باتريك هنري على كرسيه كعضو جديد ينتظر القول والعمل ممن هم اكبر منه سناً واقدم عهداً ، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل .. اخيراً احس بواجب المسؤولية وفداحة الخطب وكان لم يبق لاختتام الدورة سوى يومين ، فانتزع من دفتر في جيبه ورقة بيضاء كتب عليها بعض المقترحات ثم وقف يقرأها طالباً من المجلس اقرارها.

كان من جملة الواقفين حول الباب يستمعون الى المناقشات المحامي الجديد توماس جيفرسون يحدوه اهتمام شديد لرؤية صديقه هنري يقف مكانه ويسرد مقترحاته التي تشجب القانون الانكليزي. ولما بدأ هنري يصور ظلم الضريبة القبيحة احس توم وجميع الوقوف خارجاً انه يرتفع لشدة فرحه وينقل بعيداً ... قال هنري في معرض الخطاب : « لقد كان للقيصر بروتس ولشارل الاول كروموبل ولجورج الثالث ... »

فصاح الرئيس : « خيانة ! خيانة ! » وترددت الاصوات تكرر الكلمة نفسها . اما هنري فلم يعبأ بما سمع ولم يتوقف بل تابع مختتماً خطابه بقوله :

« دعوني انتفع بمثلهم ! وإذا كانت هذه خيانة فارتكبوا اعظم ما يمكنكم منها ... »

غير ان مقترحاته اقرت وسط عاصفة صاخبة من الضجيج ، وقد كانت كافية لافهام الملك ان للمستعمرات حقوقاً وامتيازات كما للانكليز وانهم لا يتنازلون عن شيء منها لغيرهم ولا يقبلون بضريبة عليهم لا تصدر عنهم .

وقد أقرت المقترحات باكثرية صوت واحد .

اعتقد باتريك هنري ان مهمته قد انتهت ، ولما كان يكره التناقش في الذيول امتطى حصانه في اليوم الثاني وقفل راجعاً الى بيته ، لكن المجلس الخنوع كان قد اعتزم تلافي قراره باتخاذ تدبير مفاجيء ، اذ حالما دخل توم قاعة المجلس قبل جلسة اليوم التالي بساعة وجد عمه الكولونيل بيتر راندولف والمسجلين منهمكين في تقليب صفحات محاضر الجلسات القديمة للتفتيش عن سابقة اتخذت فيما مضى من قبل المجلس لنقض احد مقرراته بقرار اخر . ولما عقدت الجلسة اتخذ قرار بنقض القرار السابق لبعض الاسباب !

غير ان حركات المجلس الخانع لم تجده فتيلا في تغيير مجرى التاريخ وتعطيل مشيئة الشعب ، لان جمهوراً كبيراً كان قد سمع (خطبة الخيانة) وشهد فصولها وهكذا انتشر خبرها في المجتمعات الخاصة والعامة حتى عم فرجينيا كلها والمستعمرات الاخرى بسرعة البرق . ثم ان الخطبة كانت قد ولدت في رأس توم جيفرسون محركا اخذ يدور في فكره ويتوسع فيبلغ مراكز ويتطرق الى نقاط لم تتضمنها الخطبة نفسها . مثلا : لماذا لا يلام النظام الملكي بدلا من الملك ؟ ولماذا الكفاح لتخفيض الضريبة الظالمة بدلا من رفضها كلها ؟ ولماذا الحرص على حقوق المواطن الانكليزي دون الاميركي ؟ لكن كان على جيفرسون ان يجتاز مرحلة الدراسة الباقية امامه ليزداد قوة على التعمق في هذه الامور اذ ان حادث الخطبة المذكورة حصل قبل حصول توم على اجازة المحاماة بسنتين .

في السنة التي دخل بها جيفرسون حلقة المحاماة مات الحـــاكم فوكيير ، وفي السنة التالية عين ملك انكلترا اللورد بوتيتورت حاكماً على فرجينيا وصار على المستعمرة ان تنتخب مجلسا جديداً يمثلها امام الحاكم .

كان جيفرسون قد صرف الآن سنتين في المحاماة وقد وجدها مهنة لا تستنفد الكثير من الوقت فانصرف الى مطالعة ما تبقى لديه من المؤلفات اليونانية التي ضاعفت غيرته على المصلحة العامة وزادت ميله نحو خدمـــة افراد الشعب من الوجهتين السياسية والاجتماعية ، فشعر انه مضطر الوصول الى مقعد في مجلس الممثلين .

كان قانون الانتخاب يستلزم عدة تمهيدات اجتماعية ويفرض على المرشح الفطن ان يرتب سلسلة خدمات وتضحيات لا مفر منها للنجـــاح ، فكان على جيفرسون ان يزور كل ناخب في البيمارل بمفرده ويؤمن تأييده بصورة قانونية والا فانه لايؤمن رجلا واحداً يمنحه صوته . ثم كان على جيفرسون ان يجعل بيته مفتوحاً وطعامه وخمره مباحا لكل طالب مدة ثلاثة ايام الاقتراع ، وان يقف امام الصندوق بين المقترعين وقت التصويت ويسجد شاكراً كل من يمنحه صوته ... لم يكن هنـالك اقتراع سري . هكذا فعل توم وبعد تموين الناخبين ثلاثة ايام بالطعام والخمر علم انه قد صار نائبا وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره .

في اليوم الثالث لانعقاد المجلس الجديد اصدر المجلس قرارات تشجب فرض الضرائب بغير موافقته وتستنكر محـاكمة متهمي المستعمرات في لندن بعيدين عن بيوتهم ، واخيراً تسأل المستعمرات

الثلاث عشرة ان تسعى جاهـــدة للتخلص من الضغط الانكليزي عليها . وبعد يومين دعا الحـــاكم الملكي المجلس لعقد جلسة خاصة بحضوره في السراي ، وفي الوقت المعين تكتل المئة عضو كجسم واحد في احدى زوايا القاعة حول كرسي الحاكم ، فلما اكتمل عددهم فاجأهم الحاكم بقوله :

« ايها السادة الممثلون ، قد سمعت بقراراتكم الطائشة ولمست اثرها السيىء ، مما جعل من واجبي ان احـــل مجلسكم فانتم اذن مصروفون ... »

وهكذا كان ، فقد اعيد نواب فرجينيا الثلاثون الى مراتبهم المدنيـة وقوبلت كل احتجاجاتهم بالرفض ، ورجع جيفرسون الى بلدته رجلا عادياً بعدما قضى خمسة ايام نائباً . قرر اكثر المصروفين ان وقت الكلام قد انقضى وجاء وقت العمل ، اما جيفرسون فكان قد التصق بجماعة تريد مقابلة الصدمة الانكليزية بصدمة مثلها ، على ان يذيع الممثلون على الشعب قراراً بمقاطعة البضائع الانكليزية كلها ووقف التعامل التجاري معها حتى تضطر الحكومة المذكورة بدافع العجز والخسارة الى انتهاج سياسة معتدلة تجاه المستعمرات ، فقررت هـذه المقترحات وأذيعت ولقيت تأييداً واسعاً ليس من جانب الشعب فقط بل من جانب الممثلين . وفي اليوم التـــالي اجتمع المصروفون بصفتهم مواطنين فرجينيين في (ابولو روم) ووقعوا على القرار الآتي :

« ايها الشعب الكريم ، انتهج خطة توفيرية صناعية الى اقصى حد . قاطع كل بضاعة تحمل ضريبة انكليزية او ماركة انكليزية ،

توقف عن الاخذ والعطاء والتصدير والتوريد بواسطة عملاء وسفن انكليزية . اعتمد توفير الاغنام للاستغناء عن الصوف الانكليزي الى ان يرفع الضغط وتعاد الحريات . »

وقد وقع العريضة خمسة وثمانون عضواً من ١٠٨ ، ولما أعيد الانتخاب لتشكيل المجلس الجديد عاد الخمسة والثمانون الى مقاعدهم دون الآخرين الذين لم يوقعوا ، وخلاصة ذلك ان الحاكم الجديد فوجىء بحركة التمرد وخاف عاقبتها فكتب الى انكلترا يطلب معاملة الفرجينيين باعتدال ؛ وصدف ان الحزب الانكليزي الذي كان قد استولى على الحكم حينئذ كان يعارض سياسة الشدة مع المستعمرات ، فأجيب الحاكم الى طلبه ؛ ودعى الى انتخاب مجلس جديد واعداً بعدم فرض ضريبة بغير موافقته وهكذا عاد جيفرسون نائباً عن منطقة البيمارل التي لازمته كل حياته .

الارض والعروس

●

يوم كان توم جيفرسون يلعب مع دابني كار على قمة تلة مونتي سيلو ويتحدث عن تشييده لبيت عليهـــا ، كان يبدأ عملا سيستغرق كل اوقات فراغه فيما بعد ؛ اذ ان الفكرة ظلت تنمو في عقله وتزداد وضوحا يوما بعد يوم . وهكذا اخذت أمانيه وهو فتى ، تأخذ شكل التصاميم كلما تقدم في السن .

من جملة المواضيع التي كانت تشغل جانبا كبيرا من حلقـــة حديث (فوكبير – صمول – ويث – وجيفرسون) موضوع جمال هندسة البناء في اوروبا ، ولما كانت هذه البنايات غير موجودة في المستعمرات كان المتحدثون يستعينون عـــلى توجيه احاديثهم بكتاب فني يصف عظمة وجمال البناء الروماني لمهندس اوروبي مشهور يدعى بالاديو . طالع توم هـــذا الكتاب فصار أسيرا له ووجد فيه الكثير من بوادر العظمة والفن التي ينبغي ان تسير جنبا الى جنب مع فنون الديمقراطية في السياسة والاجتماع .

صار يحمل الكتاب في رحلاته يدرس صفحاتـه ويرسم اشكاله المدرسية وصوره الفنية الى ان وقع اختياره على تصميم لبيت جميل قرر ان يبنيه في مونتي سيلو لكن العمل لم يكن قـــد بوشر

عندما كان توم يشغل اول عضوية له في مجلس الممثلين عام ١٧٧٠ . وبينما توم وامه يقومان بزيارة مجاورة بعد ذلك بقليل فوجئا بخادم ينقل لهما خبرا فاجعا خلاصته « ان النيران قـــد التهمت شادويل وكل محتوياتها » ...

لم يبق من مبرر لأجيل العمل في مونتي سيلو ! وفي صيف تلك السنة كان توم وافراد عائلتـه جميعا في منزل وكيل العمل يرقبون العمل على التلة... فجأة ظهر ذلك المشروع الذي شغل بال توم ببطء عدة اعوام، ظهر له الآن بليداً جداً يكاد يستنفد صبره ، واخذ عقله يثور ضد التصاميم والرسوم الهندسية ، فان انقلابا غريباً طرأ على تفكيره وجعله يتطلب السرعة !

تلك الرسوم والاشكال التي قضى السنين في تدوينهـــا على مذكراته لترتيب بيته المقبل بدت له الآن خيالية لانهـــا تتطلب الزيادة من الوقت ، فماذا دخل عقل ذلك المحامي الصغير والسياسي الجديد وجعله يحتقر هندسة بالاديو ويحسب ببساطة طرق الهندسيـة ضرباً من الخيالات ؟ ... سنرى ...

كان يعيش في مدينة (شارلز كونتي) محـام معروف يدعى جون ويلز وكان جيفرسون قد صادف المحامي عدة مرات في دور وليمز برج العـــدلية وصار صديقاً حميماً له ، وحدث ان ذلك الصديق دعا توم لزيارته خلال الصيف في منزله الريفي . فلبى توم الدعوة . كان يعيش مع ويلز في منزله المذكور ابنته مسز مارتا سكلتون ، وهي ارملة في الثالثة والعشرين ذات جمال زائد وجاذبية خارقة ، وكانت الى جانب ذلك موسيقية بارعة تأخذ دروساً على

آلة ذات اوتار من فنان يدعى (دومنيكو البيرتي). فلما تعرف توم على السيدة وسمع موسيقاها تنبهت في نفسه ميوله الموسيقية القديمة وهام بها من جديد فاخذ يتوسل الى (البيرتي) ان يعطيه هو الآخر دروساً موسيقية !

كان توم يتم الآن البيت القرميدي الصغير الذي يشكل القسم الجنوبي الشرقي من بنايته الكبيرة في مونتي سيلو ، فاوقف العمل في الجناح الآخر لكي يتفرغ لتهيئة اثاث القسم الذي اكتمل ، وكان قد اوصى على عدة الاكمال فالغى الطلب ليجلب البيانو وسائر الرياش الحديثة الفاخرة لبيته الصغير . . .

ولما وجد المسكن واثاثه كامل الترتيب جاهزاً قال : « صار المكان لائقاً لاستقبال السيدة التي اردتها . »

وهنا انكشف السر . وفي اول السنة ١٧٧٢ كان توماس جيفرسون وماروتا سكلتون قد اتحدا بالزواج .

هل الاميركيون انكليز ؟

●

في السنة ١٧٧٣ انتخب دابني كار صديق جيفرسون وصهره نائبا عن مقاطعة لويزا ، وكان يمارس مهنة المحاماة . ومع ان كار كان اصغر من باتريك هنري بسبع سنوات فقد حسب المزاحم الوحيد له في الخطابة والالقاء خلال مرافعاته معه في دور العدلية في مقاطعة لويزا .

وكما جاء باتريك هنري قبل ثماني سنوات الى مجلس وليمز برج بسبب ضريبة التمغة الهامة، جاء دابني كار اليوم يدافع هياج الشعب لقضية حادث (كاسبي) الذي وقع في ولاية (رود ايلند) .

وتفصيل الحادث ان زورقا عسكريا انكليزيا كان يكمن قبل وقوع الحادث بسنة على طريق البحر بين مرفأي نيو بورت وبروفيدانس حتى اذا مر به مركب مقلع انقض عليه كالقرصان دون سابق انذار بقصد التفتيش عن البضائع المهربة وغير المسموح بها . فاستفزت تصرفاته الشاذة شعور الاهلين واخذوا يتجمهرون للبحث فيما يؤول الى وقف تصرفه المهين لكرامتهم . كانت ولاية رود ايلند المستعمرة الاميركية الوحيدة التي يحق لها ان تنتخب حاكمها، فبادر الحاكم الى الاحتجاج لدى السلطة الانكليزية واعلن

ان كل تفتيش على المراكب يجري بدون اذن الحاكم يعتبر قرصنة.

لكن الامور ظلت كما هي الى ان حدث مرة ان ناقلة بحرية للبريد تركت نيو بورت متوجهة الى بروفيدانس دون اعلام قائد الكاسبي. فاكتشف القائد طريقها عن بعد، ورافقها مسافة طويلة ثم اسرع وكمن لها قرب البر، لكن ربان الناقلة ادرك الخطر وانباء بروفيدانس فهب أحد كبار تجارها المدعو مستر برون وكان عالماً ان الزورق لن يتحرك قبل الساعة الثالثة، فهيأ ثمانية مراكب يقود كل واحد منها ضابط وبضعة رجال واجروا مجذفين نحو الكاسبي بسرعة حيث انزلوا الرجال والبحارة واضرموا فيها النار. وكانت النتيجة ان وردت الاوامر من لندن بعد حين تطلب اعتقال كل من كان له علاقة بالعمل المذكور ونقل المعتقلين والشهود الى انكلترا للمحاكمة. جاء المفوضون الانكليز لنقل المتهمين والشهود فلم يجدوا في المدينة كلها شاهداً واحداً يعرف شيئاً.

فبادر البرلمان الانكليزي الى اصدار قرار يقضي بتجريم كل من يمس (زراً) لبدلة بحار او خشبة لزورق صغير، او رأس قبعة متروكة تخص الاسطول، تحت طائلة عقوبة الاعدام ونقله فوراً الى لندن للمحاكمة. ويعمل بالقرار في جميع المستعمرات الاميركية بما فيها فرجينيا.

اتفق دابني كار وجيفرسون على ان النقاش الطويل حول حادث الكاسبي لا فائدة منه في المجلس، لذلك قررا أن يعقدا اجتماعا خاصا يضم باتريك هنري وشقيقيه هنري وريتشارد لي، لتقرير خطة العمل. افتتح جيفرسون المناقشة في الاجتماع الخاص باقتراح يقول

« ان الاعتداء على مستعمرة واحدة يعد اعتداء على الجميع ، ويجب وضع اداة لتبادل العلم والمشورة بين جميع المستعمرات ». ولما ايد الثلاثة وجهة نظره سحب من جيبه صورة اقتراح آخر بانشاء لجنة دائمة في كل مستعمرة مهمتها الاتصال بسائر المستعمرات وتبادل العلم والمشورة ، وكان صموئيل ادامز يعمل الشيء ذاته في ولاية مستشوست فما دامت انكلترا تعامل المستعمرات كدولة واحدة فعلى المستعمرات ان تعاملها كدولة واحدة ايضاً ، وهكذا أقر المجلس اقتراح تأسيس لجنة الاتصال فور انعقاده ، وقد عين جيفرسون وكار وهنري بين اعضاء اللجنة التي طلب اليها ان تثابر على الاتصال والمخابرة مع مندوبي سائر الولايات كلما دعت الحاجة.

رجع كار الى منزله مسرورا لاطلاع زوجته على اول مغامرة له ثم تابع السفر الى شارلوتس فيل لاشغال محاماة، ولكنه لم يكد يصل اليها حتى فوجىء بنوبات الحمى القرمزية ومات قبلما يتمكن من بلوغ بيته . وقد دفن في شادويل بدون علم جيفرسون . ترك كار ثلاثة صبيان وثلاث بنات، وقد نقل جيفرسون الاولاد وأمهم للسكن معه في مونتي سيلو ثم انه عاد ونقل جثة صديقه ايضاً من شادويل ودفنها تحت السنديانة المعروفة ايفاء لوعده المقطوع منذ خمس عشرة سنة .

مات كار لكن خطبته واعماله لم تمت ... فان لجنة الاتصال ظلت قائمة ، وكان باكورة المعلومات التي تلقتها عن بوسطن ذلك الخبر الهام الخطير في باطنه والبسيط في ظاهره الذي رقصت له قلوب الفرجينيين فرحا، وقد جاء فيه ان فريق المقاطعة في بوسطن اتلف

حمولة ناقلة شاي كاملة في مرفأ بوسطن .

ثم جاء من انكلترا ان قانوناً صدر في لندن بوجوب اقفال ميناء بوسطن بوجه كل تجارة خارجية ، وقد عين موعد البدء بتنفيذ القانون اليوم الاول من حزيران سنة ١٧٧٤ ، واوصلت القوات الكافية لتنفيذه . فبادر الجماعة ، ماعدا دابني كار الى عقد جلسة خاصة للنظر في الحالة ، وبعد البحث استطاع المجتمعون الاستفادة من بعض وقائع مسجلة في تاريخ انكليزي قديم . وفي اليوم التالي قرر مجلس الممثلين اعتبار يوم اول حزيران يوم صيام وصلاة عامة ، وصيغ القرار بقالب انكليزي تقليدي . ولكن حالما رفع القرار لنائب الملك لتوقيعه رفض واصدر أمراً بحل المجلس .

اما الاعضاء فتنادوا لعقد جلسات واجتماعات خاصة عند المناسبات بدلاً من التفرق والذهاب الى البيوت ، اذ ان دستور فرجينيا لايمنع حق الاجتماع عن افراد الامة بصفاتهم الخاصة وعليه لايقدر الحاكم على اتخاذ تدابير زجرية ضدهم . كان هدف المؤتمر التمثيلي انتداب مفوضين عن فرجينيا لمقابلة ممثلي سائر المستعمرات وحثهم على انتداب مفوضين عن كل ولاية لتشكيل مؤتمر عام يمثل كافة المستعمرات الاميركية (كونغرس) تكون له سلطة عليا على كل مستعمرة ، وحيث ان جلساته تحسب غير قانونية من الوجهة الحقوقية لذلك تكون سلطة الحاكم عاجزة عن محاربتها ومقاومة قراراتها .

اعيد انتخاب مجلس ممثلي فرجينيا ، وكان بديهياً ان تنتخب المقاطعات الممثلين انفسهم ، وهكذا انتخب جيفرسون عن مقاطعة

البيمارل وركب حصانه متوجهاً نحو العاصمة وليمز بورج لحضور الجلسات لكنه فوجىء بالطريق بمرض الديسنطاريا الحادة فلم يستطع متابعة عمله بل التجأ الى مضافة قريبة بيأس شديد . لكنه كان قد هيأ صورة مذكرة سياسية لعرضها على المؤتمر للتناقش ضمّنها معظم النقاط الهامة التي كانت تشغل باله من زمن طويل . ولما كان عاجزاً عن الحضور المدفاع عن وجهة نظره ارسل نسخة عنها الى باتريك هنري ونسخة الى ابن عمه بيتون راندولف الذي كان رئيساً للمؤتمر . تذهب نظرية جيفرسون الى ان الاميركيين لا يجوز ان يحسبوا انفسهم انكليزاً لأنهم وان كانوا قد ولدوا في انكلترا وتسموا بها ، فان آباءهم النورمان كانوا قد انتقلوا اليها من بلدان شمال اوربا . وحيث ان البلاد المذكورة (انكلترا) لم تعجب احفادهم واحفاداحفادهم لذلك انتقلوا الى اميركا ، كما انتقل الاجداد الى انكلترا .

ومع ان انكلترا واميركا تخضعان لملك واحد فانهما لاتشكلان بلاداً واحدة وشعباً واحداً ، ثم ان انكلترا لم تشتر الاراضي الواقعة على ساحل الاطلسي الغربي ، لا ولم يفعل ملكها ذلك ، بل ان سكان المستعمرات هم الذين جازفوا بحياتهم واقتحموا تلك الادغال الموحشة محولينها بجدهم واجتهادهم وكفاحهم المتواصل الى مزارع منتجة وجنائن مثمرة ، فهي تخصهم ولا علاقة لها بأي ساكن في انكلترا او غيرها. كانت شريعة انكلترا تنص ان كل هذه الاراضي تخص الملك الذي يسمح لرعاياه باستعمالها والانتفاع بها ، وانه يمنحها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء . لكن جيفرسون رأى عكس ذلك على خط مستقيم ،

كان يرى ان السكان هم الذين اختـــاروا الملك ليساعدهم على استغلال اراضيهم، وانه اذا تأخر عن واجبه فان من حقهم انتخاب حكومة اخرى تحسن مساعدتهم . وقد اوضح جيفرسون ان الملك لم يكن بحسب صاحب الحق باستملاك اراضي الرعية الا زمن غزوات النورمان » .

قرئت هذه المذكرة الموجزة في المجلس فكان لها وقع عميق على اكثر الاعضاء ، غير ان الوضع القائم لم يكن يسمح بالعمل بموجبها بل رئي ان يكتفى بالقول ان سكان المستعمرات لهم من الحقـوق والواجبات ما للانكليز ، وانهم لا يقبلون بضرائب تصدر عن غير مجالسهم التمثيليـــة ، وهكذا صوت المجلس على مقترحات معتدلة وارسلها مع مفوضيه الى المجلس العام الكونغرس في فيلادلفيا .

اما في انكلترا فان مقترحات جيفرسون اعتبرت خير بيـان يوضح الموقف الاميركي . وقد طبع المنـــدوب الاميركي بمجلس فرجينا المقترحات في نشرة بعنوان «خلاصة حقوق اميركا البريطانية» وقد قرأ المشترع الانكلـــيزي ادموند بورك النشرة والمح الى المقترحات باعجاب في احدى خطبه المشهورة ، وكانت النتيجة من جهة جيفرسون قيد اسمه في قائمة الرعايا المتمردين الخطرين الى جانب اثنين من اسرة آدامز وجون هانوك وباتريك هنري وغيرهم .

اعلان الحرية

●

اخذ مؤتمر سكان المستعمرات الكونغرس المنعقد في فيلادلفيا يدرس الوسائل الآيلة الى ارغام البلاد الأم على استجابة مطالب المستعمرات ، فقرر تجربة الحصار التجاري بان تمتنع المستعمرات عن استيراد البضائع الانكليزية ابتداء من شهر كانون الاول سنة ١٧٧٤ ، وفي حال فشل هذه الطريقة يصار الى القـــاء الحجز على منتجات المستعمرات ومنعها عن البلاد الانكليزية .

في العاشر من نيسان ١٧٧٥ عقد المؤتمر الثاني للولايات برئاسة بيتون راندولف ، لكن راندولف كان بالوقت نفسه رئيس مجلس ممثلي فرجينيا . فلمـــا دعا حاكم فرجينيا دنمور المجلس لعقد دورة استثنائيـة اضطر راندولف الى العودة الى فرجينيا ، وفي اليوم التالي قرر المجلس قبول دعوة الحاكم التي كان يراد منها بحث مشروع اللورد نورث لمصالحة المستعمرات . كان المشروع يرتكز على عدم فرض اية ضريبة على المستعمرات بواسطة البرلمـان الانكليزي ، بشرط ان توافق المستعمرات على تموين الجنود الانكليز العاملين فيها . وقد تبين ان اللورد نورث رفض الاعتراف بهيئة المؤتمر وبأي اتحاد بين المستعمرات ؛ وقد وجه مشروعه الى كل مستعمرة على حدة ،

وطلب ان تتعهد كل مستعمرة بالعمل على اخمـــاد القلاقل التي قد تنشب في غيرها ، كما ان من الواجب تعاون المستعمرات فيما يؤدي الى وقف نشاط ولاية نيو انكلند التجاري في البحر .

قرر المجلس قبل كل شيء عـدم ارسال رده على العروض الى اللورد نورث بل الى الكونغرس المنعقد في فيلادلفيا . وقد اتضح للسيد بيتون راندولف وللمجلس على العموم ، ان هنـالك شخصاً واحداً يصلح لتهيئة صيـــغة الرد هو توماس جيفرسون مؤلف نظرية حقـوق المستعمرات . فلم يكن جيفرسون موصوفاً بفنه الاشتراعي فقط بل بصراحته وثباته تجاه الانكليز ، عدا عن انه كان ينوب عن بيتون في تمثيل فرجينيا بالكونغرس عندمـا كان هذا يشغل برئاسته المجلس .

كان اعضاء مجلس الولايات الكونغرس في دورته الثانية مجموعة غريبة من الرجال ، وقد شاءت الظروف ان يعقد جلساته ومعظم سكان المستعمرات في حالة حرب تقريباً مع انكلترا ، اذ ان معركة دامية وقعت بين فلاحي ماستشوست ورجـال الشرطة الانكليز قبيل انعقاد أول جلسة ، ويوم عقدت الجلسة الاولى هاجم المجاهد ايثان آلين بفرقته الملقبة بفتيان الجبل الاخضر ثكنة تيكوندروكا الانكليزية واحتلها ، كما ان معركة اخرى طاحنـــة جرت في ماستشوست عند تلة بونكر بين الفرق البريطانية النظامية و١٢ الفاً من الاميركيين المنتمين الى جمعية السلم المحلي .

كان الكولونيل جورج واشنطن قائد المليشيا في فرجينيا رفيق جيفرسون بتمثيل ولايته لدى الكونغرس ، ولمـا انعقد المؤتمر

واطلع على مجمل الحالة الواقعة رأى ان لا مفر من مواجهة الواقع وتحمل مسؤولية «الخيانة» في سبيل الشعب، فاخذ الامر على عاتقه وعين الكولونيل واشنطن قائداً اعلى لقوات المستعمرات ومتطوعيها. بقي على المؤتمر ان يعالج الوجهة السياسية للحالة القائمة بصورة قانونية شرعية فلم يجد افضل من مذكرة جيفرسون القديمة في نظريته الموجزة التي كان قدمها الى مجلس فرجينيا ووضعت على الرف، فانتدب توماس جيفرسون وجون ديكسون وامرهما ان يضعا مذكرة قانونية تبرر اسباب حمل السلاح. كان ديكسون مشترعا ممتازا مثل جيفرسون لكن الرجلين لم يكونا منسجمين في الشؤون السياسية العامة. كان ديكسون حريصاً جداً ومحافظا متطرفا وجيفرسون جريئا ومتجددا فلما اطلع الاول على الصورة التي وضعها زميله وهي تشبه راية حمراء على رأس تلة، صاح قائلا: «لا يا سيدي، لا اوافق، هذا الفرجيني ذا الرأس الاحمر على دفع المستعمرات الى الثورة»، وعاد وكتب المذكرة بلغة ولم يترك من لغة زميله سوى المقاطع الاخيرة.

وعندما قرئت الصورتان على اعضاء المجلس وجد المجاهدون في جيفرسون رمز شعورهم ومكان ثقتهم، وبعد الدرس والمقابلات العديدة اعتمد المجلس من عبارات جيفرسون الجريئة اكثر مما اعتمد من عبارات ديكسون السياسية اللينة.

كان على المؤتمر ايضاً ان يضع صيغة الرد على عروض اللورد نورث لمصالحة الولايات، فوجد الرد الفرجيني افضل انموذج، وعين جيفرسون عضواً في اللجنة المكلفة وضع الرد الى جانب بنيامين

فرانكلين ، وجون آدامز وريتشارد هنري لي ، واحرز فرانكلين اكثر الاصوات وتلاه جيفرسون ، وهكذا تسربت شعبية جيفرسون في اوساط اميركيي المستعمرات الاخرى بسرعة البرق.

اعتبرت اللجنة عروض اللورد نورث مخادعة مرائية غير جديرة للمصالحة فرفضتها اذ ان انكلترا اصرت فيها على حق فرض الضرائب ومنع الاتجار الحر على الاميركيين ، فكانت النتيجة اقرار صورة الرد الخاص بولاية فرجينيا !

في اول آب اختتم الكونغرس دورته ، فركب جيفرسون العربة التي كانت تستغرق عشرة ايام لبلوغ البيت . فوصل في الوقت اللازم لوداع صديقه ونسيبه جون راندولف الذي كان مزمعاً على السفر لانكلترا ليعيش فيها استنكاراً منه للثورة ضد الانكليز ! في الشهر التالي كان على جيفرسون ان يتحمل فاجعة عائلية احرى بوفاة طفلته الصغيرة .

في ايلول التأم الكونغرس في فيلادلفيا بدورته الثالثة لكن جيفرسون لم يستطع الحضور الا في ديسمبر عندما اعلن الملك ان المستعمرات الاميركية في حالة تمرد متهماً اياها بالعمل لتأسيس امبراطورية مستقلة . وحالما اختتم الدورة رجع جيفرسون فوراً الى بيته لان العمل صار يتطلب وجوده الآن في تلك الولاية .

كان جيفرسون اقدر محرك اجتماعي صامت عرفه الزمن. كان يملك الوسائل المؤدية الى تكوين العقائد الاجتماعية وتكتل الجماهير بطرق بسيطة هادئة ، يزور الافراد المتنفذين ويلاطفهم ويباحثهم بالحق والمنطق ، يبعث النشرات والرسائل بكثرة الى جميع الجهات ،

يواجه هذا وذاك دون كبرياء ولا تذبذب ؛ وفي الوقت ذاته يجمع المال اللازم لشترى السلاح الضروري للسلامة العامة ! كان الآن رئيس المليشيا في فرجينيا، يعمل على إعدادها لمواجهة الواجب الثاني الذي تتطلبه مصلحة المستعمرات المتحدة .

في نوار سنة ١٧٧٦ عقـــد مؤتمر شعبي بفرجينيا لبحث قضية الاستقلال تجلت فيه جهود جيفرسون واعمـاله باجلى مظاهرها ، وقد صوت المؤتمر على تفويض مندوبيه لدى الكونغرس ان يقدموا اقتراحاً باعلان استقلال المستعمرات الاميركية المتحدة وانفصالها عن المملكة الأم . وانزل العلم البريطاني عن سراي وليمز برج ليترك المكان للعلم المخطط .

حالما استتب الامر لجيفرسون في فرجينيا وايقن ان البلاد هادئة اسرع الى فيلادلفيا لاشغال مكانه بين رفاقه في الكونغرس فوجد رفاقه الابطال في حالة حماس حربي شديد ، وقد تكتلوا جميعهم حول جون آدامز وباتريك هنري وتوماس جيفرسون ، ووزعوا نشرة على كل المتعلمين في المستعمرات ، كادت تنسيهم لجرأتها وروحها الوثابة موجز نظرية جيفرسون ؛ كتب النشرة عالم انكليزي يدعى توماس بين كان بنيامين فرانكلين قد صادفه قبل سنة في لندن ودعاه للانتقال الى اميركا بلاد الظروف الجديدة فاقتنع وانتقل . كتب النشرة بعنوان (منطق الحالة) معالجاً قضية اعلان الحرية ببساطة وسلامة وحكمة غير قابلة للرد . كان ذلك في كانون الثاني ١٧٧٦ ، وفي اوائل حزيران عرض مندوبو فرجينيا على الكونغرس بنـــاء على التعليمات الواردة اليهم من

المستعمرة ، ان يعلن المجلس حرية المستعمرات المتحدة واستقلالها التام ! فوقف جون آدامز مندوب مستشوست مؤيداً الاقتراح وطالباً عرضه على التصويت .

تبين من المناقشات ان لا أحـــد ينكر حق المستعمرات الاميركية بالاستقلال ، وان المستعمرات المذكورة مستقلة فعلا ، — ألم يكن الكونغرس بحالة حرب واقعة مع بريطانيا ؟ — لكن هل كان من المناسب اعلان الامر ذلك الوقت ؟ ان المستعمرات الوسطى بدت غير مستعدة للسير الى هذا الحـــد ، لكن الضغط الشعبي العام من جانب المستعمرات الباقية ، وهي الاكـــثرية ، اهاب بالكونغرس الى قبول اعلان الاستقلال التام للدول الموقعة على القرار وترك المجال امام المستعمرات الاخرى تنضم اليه فيما بعد . انتخب المجلس لجنة مؤلفة من جون آدامز وبنيامين فرانكلين وروجر شيرمـان وروبرت لفنغستون وتومـــاس جيفرسون لوضع صيغة اعلان الاستقلال وقد نال جيفرسون اكثر الاصوات وعين مقرر اللجنة .

في ذلك الحين اشتهى جيفرسون ان يكون في المكانين بوقت واحد: بالكونغرس وفرجينيا؛ اذ ان المستعمرة كانت عازمة على وضع دستور جديد في الحال ،لكن الظروف الهامة لم تكن تسمح له بترك فيلادلفيا ، واخيراً اودع احد مندوبي فرجينيا العائدين الى المستعمرة ،وكان معلمه القديم وصديقه جورج ويث ،نسخة عن دستور اعده بسرعة . فلما وصل جورج ويث الى وليمز برج وجد ان لجنة الدستور كانت قد أقرت صورة وضعها المحاميان جيمس ماديسون

وجورج ماسون ، لكن اللجنة عادت وضمت دستور جيفرسون الى اوراقها، وقد تضمن بعض الاسباب الموجبة للانفصال عن انكلترا مبنية على الأسس التي كان جيفرسون يعمل عليها لاعلان الاستقلال.

كان على جيفرسون الآن بصفته مقرر لجنة وضع صيغة اعلان استقلال الولايات المتحدة ان يكتب قطعة أدبية قانونيـة تاريخية تتبوأ اعلى مرتبة في تاريخ العـالم الحديث ! فأخذ يكتب ويلخص ويقتبس ، يحذف كلمة تخص ادمز ويضيف كلمة لفرنكلين ، الى ان اكتملت الصورة وقدمت الى المجلس .

في الرابع من شهر تموز سنة ١٧٧٦ أقر الكونغرس اعلان استقلال الولايات المتحـدة الاميركية ؛ تضمن القسم الاكبر من البيان تعـداد مساوىء حكم الملك وأخطائه التي اثارت سكان المستعمرات ودفعتهـا الى العمل . وورد في مقدمته الفقرة الهامة القائلة بان « من حق كل شعب قلب الحكومة التي تثبت انها لا تخدم مصالحه ولا تؤمن معيشته وتتدبر اموره . »

لم يكن هـذا خيانة فقط بل كان هرتقة ، لان الدستور الانكليزي كان ينص على ان الملك يحكم بنعمة الله ومشيئته ، وان على الرعية ان تطيع الملك وحكومته القائمة ، ورغم ما جرى من التغيير على ملوك وحكومات لندن ، فقد ظلت العقلية الانكليزية متمسكة بنص هذا القانون ، اما اعلان الحرية فقد نص على ان هدف الملك او الحكومة ليس اخضاع الرعيـة بل خدمتها وتأمين معاشها وحريتها وسعادتها ، وان كل حكومة تقصر عن تأدية هذه الرسالة لايحق لها ان تطلب تأييد الشعب، بل يجب نبذها واعتبارها

سلطة ظالمة مجرمة . لقد تضمنت وثيقة اعلان الحرية جميع المواد التي تؤلف قانون حقوق المحكومين المقدسة .

على هـذا الاساس ينبغي ان نفهم العبارة القائلة « يولد الناس متساوين » لان كثيرين يتساءلون هل يولد الناس متساوين في القامة والفطنة والقوة ، بالطبع لا ؛ وليس هـــذا ما يقصده جيفرسون بعباراته المذكورة . هو يقصد انه ما دام الناس محكومين بالتساوي فان الحكومات تتسلم سلطتها من موافقة المحكومين بالتساوي ، وما دمت انا وانت نملك نفس الواجبات ونخضع لنفس القوانين فينبغي ان نتمتع بنفس الحقوق والامتيازات : حقوق الحيـــاة والحرية والعمل والاعتقاد .

الثورة الفكرية

●

كان سكان المستعمرات بعد توقيعهم على بيان جيفرسون بحالة تمرد على السلطة البريطانية، وكان بدهياً ان تعمد انكلترا الى قمع التمرد بالقوة وان تجعل الحالة حرباً واقعة. وهكذا عمت المستعمرات كلها حرب عصابات واسعة النطاق يقودها الجندي جورج وشنطن، وجازت البلاد مرحلة تاريخية سميت مرحلة الثورة العملية التمهيدية.

ثم ان اعلان مبادىء الحرية الاميركية كان قد تناول قضايا حقوقية عامة، وكشف النقاب عن نقاط قانونية اجتماعية لقيام انظمة الحكم على طريقة لا تناسب اية حكومة قائمة، فقد بين حقوق الافراد تجاه حكوماتهم، وأوضح وجوه سيطرة الامة على الدولة، ووصف كيفية انتقال السلطة وتوزيع المسؤوليات، فكان هذا كافيا لاشعال الثورة النفسية الفكرية في رؤوس جميع الافراد، وقد سارت الثورة الفكرية قدماً بقيادة المفكرين بنيامين فرانكلين وتوماس باين وتوماس جيفرسون.

حالما اتم الكونغرس مهمته تحولت انظار جيفرسون نحو فرجينيا، وقرر ان لا يصحب ممثليها الى الكونغرس بعد الان، وايده بذلك صديقه ويث، اذ ان المستعمرة اصبحت الان ولاية

مستقلة وهي في شديد الحاجة لاداة تشريعية وادارية نزيهة حازمة، كانت الولاية قد انتخبت باتريك هنري حاكماً لها وشرعت تتدبر شؤونها بنفسها. لم يكن جيفرسون مولعاً بالسلطة وحب الظهور، بل كان يريد تدبير الوسائل القانونية لرفع مستوى الشعب وتأمين سيادته وحرياته وسعادته. والغريب انه كان يعمل من اجل فرجينيا اكثر مما كان يعمل للولايات كلها، لكن تجب الاشارة هنا الى ان عدة مستعمرات كانت لا تزال عاجزة عن تشكيل كيانها الداخلي بحرية. وفيما هو منهمك بخدمة ولايته جاءه بعد شهر ان الكونغرس قد انتدبه مع اثنين هما سيلاس دين وبنيامين فرانكلين للذهاب الى فرنسا لعقد محالفات سياسية وتجارية مع حكومتها. كان جيفرسون يحلم بالذهاب يوماً الى الخارج لذلك اوقف القطار السريع ثلاثة ايام بانتظار قراره. لكن حالة زوجته الصحية ومعاكسة الظروف المحلية جعلته يعتذر، وبذلك صار عليه ان يبدأ معركة حقوقيـــة جديدة كانت تلوح حول (شرعية) الاصلاحات التي كان على حاكم الولاية واعوانه اعتمادها.

ان الثورة الاشتراعية التي كان على جيفرسون ان ينظمها لم تكن في مقدور اي انسان؛ فقد كان يطلب منه الى جانب المقدرة العلمية والنضوج الخقوقي ان يجد جماعة من الاصدقاء والمعـــاونين والمعلمين والكتاب من ذوي الكفاءات التي تنقصه هو. اخذ يفكر فيمن حوله فوقع اختياره قبل كل شيء على معلمه القديم جورج ويث الذي كان يحسبه افضل واشرف اديب عرفه، كما ان ويث كان يحترم تلميذه القديم ويجله، على ان ويث كان يفقد صفتين

ضروريتين للمهام الشعبية : هما الصبر والرزانة ، اذ انه لم يكن يتمكن من ضبط نفسه امام انتقاد يوجه اليه في مجتمع . اما جورج ماسون وهو احد اصدقاء جيفرسون الاوفياء وواضع دستور فرجينيا فكان يشبه ويث بصفاته الادبية لكن علاقاته الاجتماعية كانت اوسع وشكله اجمل ، وكانت النصوص الدستورية التي وضعها ماسون لفرجينيا قد ساعدت جيفرسون على اعلان وثيقة الحرية ، عدا انه كان يغذي جمهور مفكري الثورة بالخطب اللازمة. بقي علينا ذلك العنصر المندفع الثائر المجاهد عنصر الشباب ، والشباب الثائر يجب ان يتحلى بحكمة الكبار وان يتذرع باختباراتهم ، اخيراً وجد جيفرسون في الفتى جيمس ماديسون وعمره ٢٥ سنة ضالته المنشودة. لم يكن ماديسون بنسبة الآخرين بذكائه ومؤهلاته لكنه كان مخلصاً وجريئاً جداً .

هكذا فرض على جيفرسون – ويث – مايسون – ماديسون – تشكيل هيئة تطوير شرائع الولاية ، كان باتريك هنري وبعض الاعوان يساعدون احياناً ، لكن هؤلاء الاربعة شغلوا كل وقتهم في بناء انظمة الولاية الديمقراطية . فقد علموا ان الاكتفاء بتحرير الولاية من الانكليز لا يحقق اهداف الثورة الحقيقية . فقد تتحرر البلاد ويظل السكان قيد العبودية . اهداف الثورة تتحقق بجعل الناس يشعرون انهم يعيشون في ظل قوانين غير التي عرفوها ، قوانين تفسح لهم السبيل واسعاً للتمتع بالحياة والحرية والسعادة كما يريدون .

كانت انكلترا تحكمها فئة ارستقراطية تمتلك معظم ثروتها

ونفوذها وذلك بالسيطرة على الاراضي الواسعة فيها ، وفي سبيل ابقاء الزمام بيد نفر قليل من الافراد لم يكن يسمح بانتقال عقارات الفرد والقابه بعد موته الا لابنه البكر مهما يكن عنده من الاولاد، وعندما جاء المغتربون الاولون الى فرجينيا واستوطنوا البلاد اتبعوا النظام الانكليزي المذكور واخذوا العقلية نفسها . اقتطعوا المساحات الواسعة وعملوا ليلاً ونهاراً لتحويلها الى مزارع واقطاعيات كان يتوارثها الولد البكر عن الولد البكر فيزداد الغني غنى والفقير فقراً ، وجد جيفرسون وقد كان نفسه اقطاعياً في الاصل ، ان قوة هذه الطبقة مستمدة من القانون الذي يحميها . كان من المستحسن ان يملك سكان البلاد المزارع بحرية ، ولكن هذه المزارع لا يجوز ان تتسع الى حد اشغالها بمئات العبيد ، كما انه وجد قانون الارث المذكور غير عادل . ينص القانون انه اذا مات رجل دون وصية فان تركته تنتقل لابنه البكر الذي لا يقدر ان يعطي منها شيئاً لاخوته ، ولو اراد ، باعتبار ان القطيعة متروكة هكذا بمشيئة الجد وجد الجد فهي غير قابلة التجزؤ ، وعلى الوارث ان يسلمها بدوره الى ابنه بنفس المساحة على الاقل . ثم ان قدماء الفرجينيين كانوا قد زادوا على القانون المذكور ارغام العبيد العاملين في الاقطاعيات على الانتقال بالارث الى خدمة الاولاد الوارثين .

عزم جيفرسون على ازالة اثار قوانين الارث والاقطاع بتنظيماته الاشتراعية الجديدة لكنه فوجيء بمعارضة شديدة من جانب الاقطاعيين وكبار المزارعين الرفاق الذين جاهدوا معه ضد الانكليز يتزعمهم السيد بندلتون . كان بندلتون يفضل الابقاء على

النظام القديم للأمور ، وكان كلما وجد جيفرسون الاكثرية الكافية لاقرار التعديل عمد هو الى قلب الوقائع في اللحظة الاخيرة رأساً على عقب . واخيراً اتفق الجانبان على انه اذا مات الرجل دون وصية يحق لاولاده اقتسام التركة فيما بينهم بالتساوي .

كان هدف جيفرسون التالي قانون توطين الاجانب ، فاشترع ان كل اجنبي يريد جنسية الولاية يتمكن من ذلك بعد سكن سنتين واثبات رغبته بالبقاء فيها بصورة قانونية . وزوجة المواطن تكون مواطنة معه ، وكذلك اولاده البالغين . ويصبح الاولاد القصار الايتام المنتقلون الى الولاية مواطنين عند بلوغهم السن . لقد كانت اميركا فيما مضى ملجأ الاوربيين الناقمين على حكوماتهم والمضطهدين ، فكان هدف جيفرسون دوام هذه الحالة النبيلة الى الابد ، فاقرت الفقرة المذكورة بسهولة .

لم تكن الفقرة التالية من السهولة بمكان ، اذ انها تناولت قضية الحرية الدينية بصورة جديدة بدت للناس غريبة ومستهجنة . كانت المستعمرات الاميركية قد تعودت في معظمها اباحة الحرية الدينية . فكان يسمح للناس الاعتقاد بما يريدون من المعتقدات دون ان يعتبروا مخطئين ، لكنهم لم يكونوا هكذا من الوجهة العملية ، كانت الحرية الدينية في فرجينيا مباحة قانوناً ، ولكن معظم السكان كان ينتمي الى الكنيسة الاسقفية الانكليكانية ، فكان القانون يتطلب من الجميع حضور الكنائس يوم الاحد للصلاة تاركا بقية النهار لمشيئة الفرد يصرفه كما يشاء . غير ان الانتماء الى غير الكنيسة المذكورة كان يعني في الواقع الاضطهاد العلني تحت وطأة الحكام .

كان نصف سكان فرجينيا ينتمي الى الكنيسة المذكورة ، لكن كان يفرض على الجميع ان يدفعوا الضريبة التي تقررها هي ؛ كما ان الزواج لا يحسب شرعيا ما لم تعقده هي .

قال جيفرسون : « لا يضيرني اذا قال جاري ان هنالك إلها واحدا او عدة آلهة ، هـذا لا يثقب جيبي ولا يكسر رجلي بل يهمني ان اعرف هل وحدة المعتقد ممكنة ؟ أراها تتناول الامور السطحية الشكلية للحياة ، ولقد حرق ومزق وسجن ملايين الرجال والنساء والاطفال منذ ظهور المسيحية ومع ذلك لم نتقدم قيراطاً واحدا نحو تحقيق هذه الوحدة ، وكانت النتيجة الوحيدة التي نشأت عنها هي انقسام العالم الى فئتين فئة المجانين وفئة المرائين » .

كان جميع الممثلين من اعضاء هذه الكنيسة غير ان المعتدلين منهم فقط ماشوا مبادىء جيفرسون نحو نصف الطريق في الاصلاح الديني ؛ لقد وافقوا على انه ليس من العدل استبقاء ضريبة كنسية من افراد لا ينتمون الى الكنيسة ، وارتأوا أن يترك لكل فرد أمر تعيين الكنيسة التي يريد مساعدتها . لكن جيفرسون اعترض على هذه النقطة ايضاً لانها تفسح المجال لنشوء المشاحنات الطائفية في المستقبل وترجع عهد الاضطهاد . يجب ترك العقيدة الدينية وتوابعها مطلقة الحرية لكل فرد . ظلت هذه المعركة دائرة بين جيفرسون ومعارضيه زمناً طويلا الى ان تمكن ماسون وماديسون اثناء غياب جيفرسون في فرنسا من اقرار التشريع الذي وضعه لها . وقد ذاعت شهرة قانون الحرية الدينية المطلقة في جميع الولايات الى ان ادخل في الدستور الاتحادي في المادة الاولى من قانون الحريات

الاربع بواسطة جيمس ماديسون .

جاء دور قضية الرق واستخدام العبيد . كان في فرجينيا اثناء الثورة نحو من ٢٥٠٠٠٠ الفا من العبيد الزنوج ، وكان جيفرسون نفسه يملك نحواً من مئة وخمسين عبدا نقلوا اليه عن طريق الارث. بدأ جيفرسون يشتغل ضد نظام استخدام الزنوج بواسطة المشترى منذ كان عضواً بمجلس الحاكم الانكليزي ، وكان قد قدم اقتراحاً للسماح للزنوج الاحرار ان يعيشوا في فرجينيا لكن الاقتراح سقط ، وايقن جيفرسون ان شيئا ضد نظام الرق لا يمكن ان يتحقق ما دامت فرجينيا مستعمرة انكليزية . كان من جملة ما ذكره جيفرسون اثناء تعداد اخطاء السلطة الانكليزية في الولايات في عريضة اعلان الحرية الاميركية ان نائب الملك كان يعرقل جهود الاميركيين العاملين للحد من قساوة انظمة الرق ، غير انه وجد الآن ان اكثرية سكان المستعمرات تؤيد وجهة نظر السلطة الانكليزية وتقف عند هذا الحد . لكننا الان في عهد استقلالي ينص فيه قانون اعلان الحرية ان جميع الرجال احرار متساوون في الحقوق ، وهذا واحد من بلدان العالم القليلة الذي يسمح بالرق ! قرر جيفرسون مهاجمة القانون من اساسه راميا الى الغاء الرق دفعة واحدة ، لكنه هوجم من اعوانه وكبار المزارعين الذين بينوا له مايسبب الالغاء من المصاعب للمزارعين ، فالاعمال الزراعية تتعرقل الى حد التوقف في بعض المزارع ، ثم ان عدد الزنوج يفوق عدد البيض في بعض المناطق بنسبة النصف وتحريرهم يؤدي الى فوضى اجتماعية أكيدة .. يجب تدبير الفكرة بصورة تدريجية هادئة . ارتأى

مايسون ان يصار الى تثقيف الزنوج قبل تحريرهم بواسطة اسيادهم ، لكن جيفرسون بين من خلال اختباراته الخاصة مع الزنوج ان خير طريقة لتحريرهم تكون باخراجهم من الولاية لان من يقضي زمانه عبداً لسيده يصعب عليه مساواته بليلة وضحاها . واخيراً توصل جيفرسون الى وضع تشريع عملي للمشكلة : ابنـــاء الزنوج يولدون احراراً ويكونون تحت تصرف والديهم الى ان ينشأوا ويبلغوا السن ، ثم يتعلمون مهنة موافقة وينقلون على نفقة الدولة الى بلاد افريقية تكون وسائل معاشهم فيها مؤمنة ، واخيراً تعلن هذه البلاد دولة مستقلة بمساعدة الولايات المتحدة . وفي الوقت ذاته تبحر المراكب الاميركية الى اوروبا تنقل المهاجرين البيض الاحرار من جديد ليسدوا الفراغ الذي يتركه ترحيـــل الزنوج . كانت هجمات جيفرسون على انظمة الرق تتحطم على صخرة معارضة كبار المزارعين زمناً غير قصير والفقرة القاضية بالسماح للزنوج الاحرار بالسكن في فرجينيا لم تقبل لغاية سنة ١٧٨٢ بواسطة جهود مادبسون ، وقد نصت على ان كل ملاك يقدر ان يحرر العبد اذا تكفل ان باستطاعة هذا تأمين معاشه . وقد حرر هذا القانون في مدى ثماني سنوات عشرة آلاف عبد ، اما القانون التحريري الشامل فانه لم يوضع موضع التنفيذ الا في السنة ١٨٢٢ عندما تولى سدة رئاسة الولايات السيد جيمس مونرو تلميذ جيفرسون وصديقه . في تلك السنة نقل مستر جهودي اشمون فريقـــاً من الزنوج المحررين الى ساحل افريقيا واسس دولة ليبريا الحرة . وقد لقي ترحيل الزنوج في ذلك الوقت معارضة شديدة ايضاً بسبب الطلب الشديد عـلى

العبيد والعمال الذي عقب البدء بزراعة القطن في الولايات .

ثم ان ولاية مثالية كالتي يريدها جيفرسون في فرجينيا يلزمها تشريع ثقافي عادل يضمن سبيل العلم لكل من يريده من الناس سواء كان فقيراً او غنياً ؛ كيف يستطيع المواطنون ادراك واجباتهم وتفهم حقوقهم والقيام بما يطلب منهم تجاه وطنهم وهم غير متعلمين ؟ وضع جيفرسون قانوناً يجعل التعليم الابتدائي مجانياً في مدارس تفتح على مسافات معينة في كل البلاد ، وتسدد نفقاتها بضريبة تفرض على كبار ملاكي المناطق التي تقوم المدارس فيها ، سواء كان عندهم اولاد ام لا . وكل ولد مجبر ان يتعلم في احدى المدارس حتى يحسن القراءة والكتابة والحساب . ثم تنشأ مدارس عالية في مناطق معينة تدرس اللغات الاجنبية والعلوم العالية . ويحق للاولاد النجباء الانتقال من المدارس الابتدائية الى المدارس العالية لاستكمال دراستهم لقاء منح تقدمها لهم حكومة الولاية ، بعد سنين يصار الى انتقاء الاذكى بين هؤلاء للتخصص في المواضيع الكبرى وبعد دراسة ست سنوات يقسمون الى قسمين قسم ينصرف الى التعليم في المدارس العالية والقسم الآخر يرسل الى كلية وليم وماري للتخصص في الفنون التي يريدونها ، لكن القانون المذكور لم ينفذ بصورة تامة فوراً بل كان يطرأ عليه التعديل بعد التعديل . وفي السنة ١٧٩٦ نجح اصدقاء جيفرسون باقرار القسم الابتدائي منه لكن اشترط فيه ان على حكام المحافظات ان يقرروا الاماكن التي يلزمها مدارس ابتدائية ، ولما كان معظم المحافظين من كبار الملاكين وكان على هؤلاء ان يمولوا هذه المدارس ظل

عدد المدارس التي فتحت قليلاً جداً . اخيراً لمس المصلحون الحاجة الى دستور شامل يحل محل سلطات نائب الملك والبرلمان في العهد السابق، وسيرجع اليه عند استفحال الازمات الحقوقية والقانونية وعند وقوع الخلاف بين مختلف سلطات الدولة ، فعينوا لجنة قوامها جيفرسون ، وجورج ويث وادموند بندلتون لوضع مواد هذا الدستور . انصرف الثلاثة اولا الى مراجعة نصوص الشرائع والقوانين القديمة المنتقلة اليهم فاخذ جيفرسون القوانين الانكليزية المنتهية عند بدء مستعمرة فرجينيا، واخذ ويث القوانين الانكليزية المعاصرة لتاريخ المستعمرة وبندلتون قوانين المستعمرة نفسها . تبين لجيفرسون من خلال مراجعاته ان اول خطوة اصلاحية في قوانين الجزاء يجب ان تتناول قضية عقوبة الاعدام . كان الاعدام في القانون الانكليزي القديم عقوبة عادية تصيب الناس لاتفه الاسباب كسرقة رغيف الخبز مثلا . فاتفق الثلاثة على وجوب الغاء عقوبة الاعدام في جميع الحالات ما عدا الخيانة العظمى والقتل ، لكنهم ظلوا يكافحون احدى عشرة سنة حتى اقروا هذا القانون . وبينما جيفرسون يراجع نصوص القوانين القديمة تذكر كم كان يلاقي اثناء دراساته مع دابني كار من الصعوبات اللغوية في تفهم تعابير كوك العويصة ومصطلحاته الشائكة ، فعمد الى صياغة نصوص الدستور والقوانين بابسط اسلوب وانعم لغة وصارت طريقته هذه مثلا يقتدي به المشترعون في كل الاوقات .

وضع دستور الاصلاح امام الهيئة التمثيلية مؤلفاً من ١٢٦ مادة ، فظل ماديسون يجاهد داخل المجلس ست سنوات حتى اضطره الى اقرار ٥٦ مادة منه كدفعة اولى .

حاكم زمن الحرب

●

بينما جيفرسون واعوانه يجاهدون لجعل بلادهم افضل موطن للاجيال المقبلة جاءت الاخبار عن ساحات القتال غير مشجعة وغير مرضية . لكن في آخر سنة ١٧٧٧ ورد خبر مفرح ينبيء باستسلام حامية بوركون في ساراتوكا . كان لهذا الخبر المسرّ تأثير كبير على مجرى تاريخ الثورة، اولا لانه جعل من فرنسا حليفة للجمهورية الفتية وثانيا لان اربعـــة الاف اسير حربي ارسلوا لمعسكرات الاعتقال في فرجينيا .

كان الاسرى على مرأى من مونتي سيلو ، وقد تضمنت فرقهم العديد من الهيسيين . رأى جيفرسون هذه الفرق بعد سفر سبعمائة ميل وقد انهكها الضنى واثقل نفوسها ، فاخذته الشفقة عليها لا سيما الذين بدوا محاربين بالرغم منهم . كان بينهم ضباط المـان وجنود اوربيون لا ناقة لهم بامور الثورة الاميركية ولا جمل ، وقد نشأ بينهم وبين عائلة جيفرسون علاقات تعارف وحسن جوار ، فكانوا يؤمون بيته وبستانه ومكتبته كلما ارادوا . حتى ان الجنرال فيليبس الانكليزي قائد الحملة الذي وصفه جيفرسون بانه المستكبر الاول في اول دولة متكبرة دخل حلقة تلك الجيرة اللطيفة ، ولما

تحقق من حسن نية جيفرسون ارسل اليه مرة الدعوة الاتية: «يعتزم ضباط الجيش تمثيل رواية مساء السبت في المخيم ، فاكون ممنوناً جداً اذ اتشرف بحضوركم مع السيدة جيفرسون الى الحفلة اذا شئتم».
كتب جيفرسون الى احد اصدقائه في هذا الشأن يقول : « انه لمن صالح البشرية تخفيف اهوال الحروب وآلامها في ظروف كهذه، اذ ليست معاملة الاسرى باللطف عملية مسرة بحد ذاتها بل انها تبعث الغبطة في نفوس العالم اجمع، الاعداء والاصدقاء والمحايدين».

في السنة ١٧٧٩ صار جيفرسون حاكم فرجينيا . كانت مساحة تلك الولاية حينئذ اوسع مما هي عليه الان ، تمتد غرباً لغاية نهر المسيسبي محتوية البلاد المعروفة اليوم بفرجينيا وفرجينيا الغربية وكنتكي وقسما كبيرا مما يدعى الان اوهايو واندياذا واليلينويز ، ثم انها كانت من عدة وجوه مستقلة بشؤونها تقترض ما تريده من المال على مسؤوليتها ، وقد عقدت معاهدة مع فرنسا بعد تسمية جيفرسون بيومين كانها دولة مستقلة . لقد كان للمعاهدة مع فرنسا بعض النتائج السيئة كما كان لها بعض الحسنات . فهي اولاً تركت تاثيراً روحيا مضرا على الجانبين ، لان اقدام فرنسا على ارسال الجيوش لمساعدة الثورة اضعف حماس الاهلين للتطوع اذ لم تعد الحاجة اليه ماسة بنظرهم ، وثانيا جعلت الانكليز اقوى عزيمة على متابعة القتال وتقويته لخوفهم ان تصبح الولايات ممتلكات فرنسية ، فاشتد ساعدهم وتضاعفت رغباتهم الهجومية لتغطية هزيمة بوركون وشن حملة لاحتلال الجنوب باعتباره قليل السكان وسهل المنال . كان الانكليز صاعدين من الجنوب عبر كارولينا الشمالية فاعتزم

جيفرسون ان يمنعهم عن بلوغ فرجينيا مهما كانت النتائج . وهو من اجل ذلك وضع كل امله بالجنرال غايتس الذي كان يتولى الدفاع عن كارولينا ضد الانكليز وأرسل اليه كل ما استطاع توفيره من الرجال والعتاد .

غير ان اكثر الفرجينيين سامهم تسرب وسائل الدفاع عن بلادهم الى كارولينا ، لانهم كانوا يعتقدون ان عساكر الفرجينيين لن يحاربوا في غير فرجينيا . وبينما جيفرسون في ابان حملته لمساعدة الجنرال غايتس تلقى خبراً مفاده ان الاميركيين أصيبوا بهزيمة كبيرة في جنوبي كارولينا ، خسروا فيها كل ما تلقوه من جيفرسون وكل ما كان عندهم من العدة والعتاد . صار من المتوقع ان يهاجم الانكليز فرجينيا نفسها ، وهب ناقدو حملة جيفرسون للتذمر من جديد .

لكن هدوء جيفرسون وحكمته في معالجة الامور سهل له تأمين خطوة ناجحة ، ذلك ان قائداً انكليزياً يدعى هاميلتون كان قد صرف شتاء سنة ١٧٧٩ متعقباً رؤساء القبائل الهندية لحثهم على مهاجمة الاميركيين . لم يكن من عادة الهنود الحمر اخذ الاسرى بل قتلهم ، كما انهم لم يكونوا يميزون بين المدنيين والعسكريين والنساء والرجال . فأرسل الكولونيل جورج روجر كلارك ، جار جيفرسون المخلص ، على جناح السرعة مع فرقة صغيرة مؤلفة من مئة وثلاثين محاربا للايقاع بهاملتون . ومع ان فوزه لم يكن منتظراً فقد نجح واعتقل هاملتون وجميع مرافقيه البيض باكراً في الربيع ؛ وقد احتفظت القيادة بهاملتون واثنين من ضباطه في

وليمز برج واطلقت سراح الباقين مقابل وعود مقطوعة . امنت فرجينيا الآن حدودها الغربية وصار عليها ان توجه كل قواتهـــا لوقف زحف الانكليز من الجنوب. كان زحف الانكليز بالجنوب بطيئاً جداً لبعد المسافات وصعوبة مواصلاتها من جهة ، ولغارات فرق العصابات عليها من الجهة الاخرى ؛ على ان فرجينيا اصبحت الآن مهددة من جبهة جديدة هي الجبهة الشرقيـة اذ ان اسطولاً انكليزيا دخل خليج تشيز بيك لانزال قوات برية على الساحل ، وقد نجح وانزل فرقاً عديدة . احتفظت فرجينيا باهدوء مترقبة تطور الحوادث لكن الامر توقف عند هذا الحد ، لان القوات التي انزلت امرت بانتظار اقتراب القـــائد كورنواليس الزاحف من الجنوب . لكن حرب العصابات اخرت هذا الجيش عن الوصول في الوقت المحدد مما جعل الاسطول يقفل راجعاً بعد انتظـار شهر كامل . أحست فرجينيـا ببعض الاطمئنان ، واذا بخبر مفاجىء يقول ان سبعاً وعشرين قطعة حربية دخلت الخليج وبدأت تنزل الجيوش ؛ كان ذلك صباح الاحد في الحادي والعشرين من ديسمبر ١٧٨٠ ، وصباح الثلاثاء تبين للحاكم ان الجيوش البريطانية تتبـع مجرى نهر جيمس مستفيـــدة من مياهه ، فدعـــا جيفرسون قوات المليشيا وامرها ان ترابط عند ريشموندحيث يصير النهر غير صالح للملاحـــة . وفي مساء الخميس اخبر جيفرسون ان القوات الانكليزية نزلت كلها الى البر وبدأت تزحف بقيـــادة بندكت ارنولد . وجد جيفرسون نفسه وحيداً لان جميـع افراد الحكومة كانوا على الجبهات وقوات المليشيا تعجز عن صد جيوش

ارنولد وليس عنده خبرة عسكرية يستعين بهـــا لانقاذ الموقف ، فماذا يفعل ؟ .

ارسل عائلته الى منزل نسيب له في توكاهو ، ثم ركب حصانه متوجهاً الى ريشموند لمراقبة سير الامدادات نحوها وعاد عنـــد منتصف الليل لتفقد العائلة. وفيما هو متجه الى ريشموند صباح اليوم التالي فوجىء بان البلدة قد سقطت بيد العدو ، فحول سير الامدادات وقصد محلة البارون فون ستيبن الضابط الوحيد المتمرن الذي كان بامكانه ان يسعفه بنصيحة .

كان القائد الانكليزي ارنولد الآن في ريشموند يحاول اخضاع البلدة بالهدم والحريق بينما المليشيا الفرجينية تحيط به من الخارج . وقد كان من حسن حظ ارنولد ان الرياح تحولت بحيث امن مواصلاته على النهر .

قضى جيفرسون ثلاثة ايام ونصف اليوم يتعقب حركات ارنولد على نهر جيمس ، لكنه ادرك ان عليه ان يتحمل المهام التي لم تكن من رأيه ، في يوم من الايام ، وهي مهام السلطة الديكتاتورية ، اذ ان الظروف القاهرة جعلت الحكومة المدنية غير موجودة وصار على الحاكم (العسكري) ان يقوم بجميع سلطاتها . اصبحت فرجينيا الآن مهددة من جميع الجهات ، ففي الشرق تتقدم قوات ارنولد من جهة ستيبن ولافايت ، وفي الجنوب تمكن كورنوليس وتارلتون من اقتحام الحدود والصعود شمالاً ، وفي الغرب بدأت القبائل الهندية تستعد للغزو والنهب ، والاسطول الانكليزي يحفر السواحل مراقباً سير المعارك ...

بعد عـــدة طلبات للنجدة أرسل وشنطن الصبي لافييت الى فرجينيا ، كان هذا الجنرال قد صرف اربع سنوات في اميركا قبلما دخل ريشموند في اذار ١٧٨١ ومن اول اجتماع له به صار جيفرسون صديقاً له مدى الحياة .

فجأة عقد مجلس الولاية جلسة مستعجلة لمنح الحاكم السلطة لتعبئة كل موارد الدولة لانقاذ الوطن، المدنيين والعربات والخيول والمؤن والامتعة والثياب والزنوج ، كان عليه ايضاً ان يعتقل المشبوهين ويؤمن المال اللازم ، وباختلاصة كان على ذلك الذي قضى حياته يشترع القوانين لحفظ حقوق الافراد وحماية حرياتهم ان يتسلم من السلطة الفردية اكثر مما تسلمه اي ديكتاتور آخر . . .

اما المجلس فقد اضطر لتعطيل جلساته والفرار من خطر الاعتقال اربع مرات في عهد رئاسة جيفرسون ، اولا عندما سقطت ريشموند في كانون الثاني ١٧٨١ وثم في آذار ونوار من السنة نفسها اذ قرر الاعضاء الباقون المثابرة على الاجتماع في شارلوتس فيل قرب مونتي سيلو لكنهم عادوا وفروا من هناك ايضاً لمفاجأة الجنرال تارلتون لهم بعرباته البيضاء قصد اعتقالهم ، وقد نجا جيفرسون نفسه من الاعتقال باعجوبة .

في اول حزيران انتهت مـدة رياسة جيفرسون ولكن الخطر المداهم حال دون اجتماع عـدد من الممثلين كاف لاجراء الاقتراع فمر الوقت وفرجينيا بلا حاكم .

عندما تمكن المجلس من الاجتماع في السابع من حزيران كان الاعضاء بحالة عصبية متوترة يفتشون على من تلقى عليه مسؤولية الحالة ، وكان طبيعياً ان يتحمل جيفرسون نصيبه من هذا الامر . لم يعترض

بعضهم على ارسال وسائل الدفاع الفرجينية إلى كارولينا ، وها هم محاطون من جميع الجهـــات بقوات العدو ... وقد تحرك الآن خصوم جيفرسون من المحافظين الذين قاوموا الغاء الاقطاعية واباحة الحريات الدينية ، ووقف احدهم جورج نيكولاس المحافظ من مقاطعة البيمارل متهما الحاكم السابق بالتقصير في تأدية واجبه بما سمح لأرنولد باحتـــلال الولاية - فهب انصار جيفرسون للدفاع عن سياسته لكن الصدمة كانت شديدة الوطأة على حساسيته حتى انه وقف صامتاً ، كيف يساء الظن فيمن قضى ثلاث عشرة سنة في خدمة المجتمع والسعي لاسعاده في الحاضر والمستقبل ؟

بلغ من دهشته ان دعا صديقاًله وكلفه ان يجلب من نيكولاس لائحة بالتهم التي يوجهها اليه كيما يجيب عليها واحدة واحدة . فاعطي اللائحة واجاب عليهـا بكل وضوح وانسحب الى الريف يحتضن جحود ولايته ، لكنه قبـل ان يذهب اضاف الى سلسلة خدماته الشعبية خدمة اخرى عندما هب احد الاحزاب يطلب انتخـــاب دكتاتور فوقف جيفرسون وقال « ان مجرد التفكـير بذلك يعد خيانة للشعب وللجنس البشري بصورة عامة » ثم ايد حزبه صاحب الاكثرية واسقط الاقتراح . وجد ان ما تحتاجه البلاد بالحقيقة هو رئيس عسكري اي له خـــبرة عسكرية ، وانما يجب ان ينتخب بالطريقة القانونية ويظل خاضعاً لاحكام الدستور ، وهكذا وجه نشاطه الاخير لانتخاب صديقه الجنرال نلسون خلفاً له .

كان نلسون من اكبر معاوني ادارة جيفرسون ، كان يساعدها بنفوذه ومكانته العسكرية واموالـه ومزارعه وعندما انتخب ذهب

بهدوء لتسلم مهام الحاكم العسكري الحازم الذي كانت فرجينيا باشد الحاجة اليه .

امر نلسون بتعبئة كل الرجال والعربات والخيول والعبيد والمؤن الموجودة لخدمة الجيش ، وقد استطاع ان يرضي مواطنيه اكثر من سلفه مع كثرة ما طلب منهم من التضحيات . وبعد ما تسلم الحاكمية بستة اشهر اضطر ان يترك ويتقدم الى المجلس للاجابة على بعض التهم الموجهة اليه .

في ذلك الوقت كان جيفرسون بمزرعة زوجته في مقاطعة بدفورد منتظراً انعقاد المجلس كي يرد تهم المشتكين عليه ويعتزل السياسة الى الابد .

في آب حمل لافايت رسالة الى جيفرسون من رئيس كونغرس الولايات تضمنت خبراً هاماً هو تعيينه ممثلاً للحكومة الاميركية في الخارج أي في اوربة لكن جيفرسون لم يرد ان يذهب قبل دحض التهم ولذلك اعتذر .

قبل انعقاد المجلس ثانية كانت الحرب قد انتهت ، باستسلام القائد كورنواليس في يورك تون . قد تحررت فرجينيا من المغيرين عليها وباتت فرحة مسرورة في عيدها الاكبر لا يعكر تفكيرها خبر سيىء ولا تتذكر حادثة مؤلمة .

بعد شهر واحد بادر جيفرسون لحضور جلسات المجلس في البيمارل فانتخب رئيساً له بالاجماع . وقف جيفرسون مكانه عابساً : لعل المجلس يذكر التهم التي قدمت ضده في آخر جلسة ، فهل للمشتكين ان يعيدوها الآن فهو مستعد ان يواجه الشكاوي ويدحضها ؟

لم يكن من مجيب ، اذ ان جورج نيكولاس قد تغيب قصداً ،

وبعد لحظة قرأ جيفرسون التهم بنفسه واخذ يثبت بطلانها الواحدة بعد الاخرى ثم جلس مكانه .

فوقف احد الاعضاء على الفور واقترح المجلس ان يتخذ قراراً اجماعياً بتقديم خالص الشكر الى حاكم البلاد السابق « على ادارته الصادقة والمستقيمة والمجردة » فقبل الافتراع من المجلس ولجنته العامة دون اعتراض احد .

على ان جيفرسون لم يحضر جلسات الدورة التالية تنفيذاً لوعده باعتزال السياسة والانصراف الى حياة عائلية هادئة . لكن اصدقاءه الذين غضبوا قبلاً من اجل التهم السياسية التي وجهت ضده ساءهم منه اليوم ان يتخذ من حساسيته الشديدة وكبريائه موقفاً مضراً لمصالح البلاد ، كانوا يعلمون اي فراغ سيتركه اعتزاله ، ويقدرون عظيم تأثيره على انتظام الاعمال واستقامة الادارة فكيف يستطيعون الخدمة العامة بدون آرائه السديدة ... بادر احدهم ، جيمس مونرو ، ووافاه برسالة تضمنت ما قاله الناس بهذا الشأن راجياً منه العودة والنزول على ارادة الشعب فاجابه بانه : « فحص قلبه جيداً ووجد ان كل عضلة فيه قد تأثرت وجرحت من تلك الصدمة غير المنتظرة التي رماه بها الذين اشتغلوا معه وكانوا يعرفون هدفه ونواياه » واختتم الجواب بقوله : « اشعر كأن هذه الاساءات قد احدثت جرحاً في نفسي لا تزيله سوى ظلمة القبر الشافية . » ثم ان جورج تيكولاس عاد ونشر كتاباً مفتوحاً يعتذر فيه بلطف عما بدر منه خلال تلك الظروف العصيبة ، وبذلك لم يبق لجيفرسون ما يبرر به اعتزاله السياسة .

العودة الى الميدان

●

كان لمغريات المعيشة الريفية اثرها البليغ في اعتزام جيفرسون ترك السياسة ، فقد حالت واجباته الماضية في فيلادلفيا ووليمزبرج ورئاسة الدولة دون اقلام الكثير من رغباته البيتية الخاصة ، اولها الدار التي كان قد باشر بها على تلة مونتي سيلو . ثم انه كمزارع مثقف ، احب ان يصرف شطرا من عمره في الحقل الاخر من شؤون الحياة ، حقل الطبيعة والعلم ، احب ان يعيش مدة كعالمٍ طبيعي . كان قد سمع من معلمه صمول خلال دراسته ان على العالم الصحيح ان يرقب انطباق المعلومات الفنية على حوادث الطبيعة وظواهرها ؛ وهكذا أخذ كتابا وجعل يسجل ادق التغييرات اليومية على مدار السنة لمدة خمس سنوات : كمية المطر الساقطة في كل مكان من الولاية ودرجات الحرارة والرطوبة ووجهات الرياح واوقات هبوبها ومواعيد هبوط الثلوج وعدم هبوطها ومواعيد تفتح براعم انواع النبات والاشجار ومواعيد سقوط أوراقها وظهور الحشرات والعصافير ومواقيت اختفائها ، ومتى يظهر كل نوع من الفاكهة وفي اي يوم ينقرض . عدا عن ان كل ملاحظة طبيعية ذات قيمة وكل قول مأثور كانت تسجل في كتابه يوما بعد يوم، الى جانب

وصف الموارد الطبيعية والمحاصيل ومعيشة الفلاحين والعبيد وحدود المقاطعات والعادات المألوفة والامثلة الدارجة في مجمل الولاية ، حتى حسب اول جغرافي اميركي صحيح الرواية .

اصيبت مسز جيفرسون على اثر ولادة طفلتها الثانية بضعف ظل يحاربها حتى اودى بحياتها في السادس من ايلول ١٧٨٢ . لقد تركت ابنتين صغيرتين ماري وعمرها اربع سنوات ولوسي الطفلة، اما جيفرسون فقد اعتزم ان يجعل من نفسه اما وابا لهاتين الطفلتين، محاولاً ان يشفي الجراح التي سببتها وفاة الوالدة بمزيد العناية بابنتيها.

كانت شؤون الولايات تدار الآن بواسطة الكونغرس القائم على دستور الاتحاد الذي نفح لآخر مرة في سنة ١٧٨١ . وبينما جيفرسون في امفيل تلقى كلمة من الكونغرس تعلمه انه قدعين مفوضا، وان عليه ان يذهب الى باريس ليساعد بنيامين فرانكلين وجون جاي في اتمام معاهدة الصلح مع انكلترا ، وكان اصدقاء جيفرسون يتمنون عودته لمعترك السياسة خصوصا بعد وفاة زوجته . اما هو فكان متمنيا ذلك ايضاً بل كان متشوقاًله ، اذ ان الظروف قد اتاحت له فرصة اوسع لتحمل مهمات اكبر واعظم فائدة . وعلى ذلك توجه الى مرفأ بلتيمور للابحار على ناقلة فرنسية الى باريس في ابان فصل الشتاء ، فاذا السفينة الفرنسية متوقفة في بحر متجمد والاسطول الانكليزي لا يزال محاصرا المرفأ . وبينما العمل يسير نحو حل هذه المصاعب وردت الاخبار عبر الاطلسي ان الصورة الاولى لمعاهدة الصلح قد وقعت . ولما لم يعد من حاجة لذهاب جيفرسون فانه رجع الى بيته وصرف صيفا آخر بالعمل الريفي

الشاق ، لكنه لم يشعر هذه المرة باية لذة اثناء العمل . اما اصحابه فكانوا لا يزالون يعملون لارجاعه الى مكانته السياسية العالية فانتخبوه في آخر الصيف ممثلا لولاية فرجينيا لدى كونغرس الولايات الاتحادي على ان تبتدىء مهمته في شهر تشرين الثاني .

كانت قضية عملة الدولة (النقد) مشكلة الساعة في الولايات ، وكان على الكونغرس ان يبت بها اثناء تلك الدورة ، وكان من الطبيعي ان تتجه الانظار نحو استعمال التنظيم البريطاني القائم على البنس والشلن والليرة الاسترلينية وتوابعها ، لكن الفكرة لقيت معارضة شديدة من جانب جيفرسون وسائر المؤسسين : في بداية تأسيس جمهورية عصرية فلماذا لا نضع نظاما جديدا حساسا ما دمنا نملك الفرصة !

اقترح الحاكم موريس استعمال النظام العشري فأيده جيفرسون على الفور وذلك بتقسيم الوحدة النقدية الاساسية الى عشرات ومئات من الاجزاء الصغيرة ، فكل مئة جزء من الوحدة (كالليرة او الدولار) تساوي الوحدة ، وكل عشرة اجزاء منها تساوي قيمتها مجموعة . وهكذا جعل الدولار الاسباني اساساً لنقد الجمهورية الاميركية .

انتقل الكونغرس الى معالجة مسألة حكومة المنطقة الواقعة شمال غربي فرجينيا المعروضة عليه من قبل هذه الولاية .

عرض جيفرسون مشروع قانون يقضي بان كل بلاد جديدة تمتلكها الجمهورية ينبغي ان تقسم الى ولايات اميركية لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما لسائر الولايات المتحدة ، بذلك يظل المجال

مفتوحا لنمو الجمهورية ولاحتفاظها بوحدتها في آن واحد .

« يزداد عدد الولايات بقدر ما يشاء ، وانما تظل الجنسية واحدة للكل ». كان جيفرسون يحلم بنشوء دولة كبرى مؤلفة من عدة ولايات موحدة ومتماسكة . يخول القانون شعوب البلدان التي تريد ان تصبح ولايات اتحادية تأليف حكومات ذات سلطة داخلية بشرطين . اولا : يجب جعل نظام الحكم الداخلي جمهورياً على ان لا يمنح الجنسية لمن يحمل لقباً ارثيا ، وثانيا يجب الغاء نظام الرق بعد السنة ١٨٠٠ ، واخيرا يحق لاية ولاية جديدة مساواة الولايات الاتحادية الاصلية الـ ١٣ عندما يصبح عدد سكانها الاحرار موازيا لعدد سكان الصغرى من هذه الولايات .

عندما طرح هذا المشروع على الكونغرس اقره بعد ادخال تعديل خفيف ازال الشروط التي كانت موضوعة على الالقاب الوراثية وانظمة الرق . ومع ذلك فقد ظل القانون يحمل اسم واضعه جيفرسون الى هذا اليوم . فالى هذا الرجل يرجع الفضل فيما يجده ساكن احدى الولايات الاميركية اليوم من حرية التنقل والاخذ والعطاء في نحو خمسين ولاية اميركية اخرى ...

بقي على الكونغرس ان يتخذ الوسائل العاجلة والمؤدية الى تقوية الجمهورية معنويا واقتصاديا وزيادة روح التضامن والوحدة بين الولايات . اقترح جيفرسون ان ترسل الجمهورية وزراء مفوضين الى اوربا لعقد اتفاقيات تجارية مع دولها كي تتعلم ان تنظر الى الولايات الاميركية كبلاد واحدة ، ثم اورد صورة سلسلة تعليمات يعمل بها المفوضون الاميركيون في الخارج ، تضمنت الى جانب

الشؤون التجارية والمالية جملة نقاط تهدف الى جعل الحروب اكثر انسانية ، وتطلب الى المفوضين ان يبذلوا جهودهم عند المناسبات لارغام المتحاربين على احترامها .

منع ضروب الحرمان وازعاج المحايدين والفلاحين وعدم حصر الاسرى في اماكن ضيقة وغير صحية وعدم تخريب السواحل ، وبكلمة واحدة حصر وقائع الحرب وعملياتهـــا بحركات الجيوش والعساكر والبحارة والاساطيل وقد اقر الكونغرس هذه النصوص بكل حماسة .

فرنســـا

●

في اليوم الذي اقر فيه الكونغرس تعليمات جيفرسون لوزراء ما وراء البحار عينه هو وزيرا مفوضاً لاميركا في اوربا . وكانت مهمته ان يوضح سياسة الجمهورية الفتية ويعاون بنيامين فرانكلين وجون آدامز اللذين كانا في باريس لعقد معاهدات جديدة .

وفي الخامس من تموز ١٧٨٤ بعد العيد الثامن لذكرى اعلان الحريـــة بيوم ابحر المركب سيرس من بوسطن حاملاتوماس جيفرسون وابنته مارتا الى الشاطىء الفرنسي .

صرف جيفرسون وابنته الايام الاولى في باريس نفسهاللتعرف على المدينة جيداً قبل البدء بالعمل ، ثم ادخل ابنته احدى مدارس الراهبات كي تتمم علومها العالية على ان يعود ويطلب اختها بولي لمشاركتها العلم فيها .

تراكمت المهمات على جيفرسون بباريس ، فكان عليه اولا ان يشرح لفرنكلين وادامز مضمون التعليمات لعقد المعاهداتوتخفيف ويلات الحروب ، ثم ان يشارك الوزيرين بانشاء نصوص المعاهدات المقترحة وتقديمها لدول اوربا ، كانت الاجتماعات تعقـــد في بيت فرنكلين بمحلة باسي قرب باريس .

انجز المفوضون الاميركيون الثلاثة صور المعاهدات المطلوبة عقدها طبقاً لتعليمات الكونغرس وقد ضربها فرانكلين على آلته الطابعة وأرسل نسخة لكل دولة .

كان اول من عقد محالفة مع اميركا فردريك الكبير امبراطور بروسيا وقد عقبته الدنيمرك وتوسكانيا – وهنا استدعي فرنكلين الى اميركا وكلف جيفرسون ان يشغل مهامه . صار عليه ان يقوم باشغال منصبين ، منصب قنصل ومنصب سفير ، وأن يهتم بنوعين من الشؤون ، الشؤون التجارية والشؤون السياسية .

بينما جيفرسون على هذه الحالة اذ برسالة ترده من آدمز السفير الاميركي في لندن تفيد ان الحكومة الانكليزية تنوي عقد معاهدة صداقة مع حكومة مستعمراتها القديمة . سرّ جيفرسون بهذا الخبر اذ انه كان يجيد استرجاع صداقة البلاد الأم ، وهكذا ذهب الى لندن وساعد آدامز على انجاز صورة المعاهدة .

وبالنظر لوصول جيفرسون من بلاد لطيفة مضيافة مثل باريس فقد اعتراه عارض من الذهول امام تلك المعاملة التي كان آدامز يلقاها في لندن .

كتب جيفرسون في مذكراته عن لندن ما يلي : «عندما كنا نقدّم الى الملك والملكة خلال الزيارات العامة ، كان لا يلوح لهما شيء اكره من التلفت نحوي ونحو آدامز ... » . وكان وزير الشؤون الخارجية يقابل عروض السفيرين الاميركيين لعقد المعاهدة ببرود وانكماش ولا مبالاة ، ولم يكن بوسعه تعيين الوقت لمواجهتهما لانشغال اوقاته ! .

مضى على هذه الحالة نحو سبعة اسابيع حتى نفد صبر جيفرسون

وقفل راجعاً الى بيته بباريس . اخذ يباحث الوزراء الفرنسيين ، فاعترضه هؤلاء بقولهم ان تجارة اميركا تتسرب اكثرها الى انكلترا مع ان فرنسا هي الصديقة الوفية لأميركا لا انكلترا . فاوضح جيفرسون ان سبب ذلك يعود الى الضريبة المرتفعة التي تفرضها فرنسا على البضائع الواردة بحيث يستحيل على التجار الاميركيين بيع بضائعهم لفرنسا او مشترى بضائعها . واقترح جيفرسون تخفيض الضرائب عن البضائع الصادرة او الواردة الى اقصى حد او الغائها . اما هو فكان يؤيد حرية التجارة على الاطلاق .

حافظ جيفرسون على إرسال سيل من المعلومات من فرنسا الى اميركا . كان يراسل كليات يال وهارفارد و « وليم وماري » وفلادلفيا على الدوام واصفاً لها كل المخترعات والاكتشافات الاوربية الحديثة ، حتى انه كان يوافيها بلوائح الكتب الجديدة التي يراها مناسبة للتعليم . وقد منحته كلية يال سنة ١٧٨٦ درجة شرفية إقراراً بفضله وتقديراً منها لجهوده . وفي السنة التالية أهدته هارفرد الدرجة ذاتها للاسباب نفسها . كان اول من ارسل الى اميركا خبر نجاح محرك واط البخاري الذي شغل قوة حصان بكيلو ونصف من الفحم .

وقد اعجب كثيراً بتقدم فن الطيران بواسطة البلونات والمنطاد .

كان جيفرسون يحب التنزه في البر خارج باريس ، ففي احد الايام عثر اثناء سيره فسقط على يده اليمنى وكسر مشط يده ، تشابكت عظام الكف باللحم حتى تعذر اعادتها الى حالتها الاولى وبذلك ظلت يد جيفرسون اليمنى ضعيفة ويابسة الى آخر حياته ، فانقطع عن الضرب على آلات الموسيقى لكنه عوّد يده اليسرى على الكتابة وأتقنها .

العـائلة في الخارج

●

أخذت تتعاقب على فرنسا اثناء ذلك حوادث ذات اهمية بالغة، فقد اطلت الثورة .

كان شتاء سنة ١٧٨٨ — ٨٩ فصلاً مخيفـاً في باريس ومعظم فرنسا لظهور ازمة خانقة لم يشهد الشعب لهـا مثيلاً ، فقد تفشى الفقر وعمت المجاعـة حتى صار يستحسن من جانب المدعوين الى الولائم الارستقراطية حمل مؤونتهم من الخـبز معهم !.. ارسل جيفرسون مذكرة بهـذا الشأن الى حكومته نشرتها الصحف الاميركية وكان من جرائها ان ارسلت اميركا الى فرنسا ٣٥٠٠٠ برميل من الطحين .

لقد كان محرر دستور « اعـلان الحرية » في نظر الفرنسيين رسول انجيل الحريات المقدسة ، الدينية والسياسية والاجتماعيـة والاقتصادية ، رجل علم واطلاع وخبرة وعمل ؛ كان وجوده في باريس حينئذ على عتبة الانقلاب الفرنسي الكبير ، في نظر الاحرار ومنظمي الثورة امثال لافييت صدفة سعيدة . وكان جيفرسون على صداقة متينة معه ومع اعوانه وكان يود مساعدتهم ، غير انه كان يزنه مركزه السياسي والأدبي تجاه ملك فرنسا ومعاملتـه

الكريمة له فيقف محايداً وحائراً !

ثم ان جيفرسون كان مديوناً للافييت في عدة نقاط : فلقد كان هذا منذ عودته من زيارة اميركا سنة ١٧٨٤ حامياً لمصالح الاميركيين في فرنسا .

لقد جاء لافييت يسأل التشجيع والنصيحة فكيف يمنعها عنه!.. سأله المركيز مرة اذا كان باستطاعته دعوة ثمانية اشخاص لتناول الغداء على مائدة جيفرسون ! فلما حضر الاشخاص التسعة على الطاولة يتناقشون تبين انهم من حزب المجاهدين الجديد وانهم اجتمعوا ليقرروا فيما اذا كان يجوز للنواب بلوغ النيابة عن طريق الارث ام بالانتخاب فحسب ؟ وعما اذا كان يحق للملك وقف مقررات المجلس .. ظل جيفرسون بعيداً عن النقاش ، اذ وجد أن اقل تدخل من جانبه يمس مركزه كوزير مفوض للولايات المتحدة ثم انه عاد واطلع وزير الخارجية على مجمل ما حصل له مع ضيوفه .

كذلك عندما اعتمدت الهيئة الحاكمة تقرير نظام الحكم المقبل للبلاد وعينت اللجنة المكلفة وضع صيغة القرار الثاني ونصوص الدستور دعي جيفرسون الى حضور جلساتها كضيف شرف ، لكنه اعتذر بلطف احتراماً للمركز .

عندئذ تلقى جيفرسون من الرئيس واشنطن دعوة لقضاء اجازة ستة اشهر في الوطن . وبينما هو يعد عدة السفر مر فصل الصيف كله وكانت الثورة قد بلغت اهدافها ؛ احب ان يبقى ، لكنه آثر ان يذهب ..

حكومة جمهورية

●

قبل ابحار سفينة جيفرسون من الهافر ببضعة ايام عين اول ناظر للخارجية الاميركية من قبل اول رئيس لتلك الجمهورية . اما هو فلم يتسلم الخبر الا عند وصوله الى الشاطىء الاميركي وكان بوده ان يعتذر عنه لاول وهلة ، فان فرنسا على باب انقلابات خطيرة ويكون من الحرام ترك حوادثها تمر دون رقيب. لكن جيفرسون عاد واقنع نفسه ان وجوده في نيويورك قد يكون انفع من وجوده في باريس ، وهكذا قبل المنصب في أواسط شهر شباط ١٧٩٠ . كانت ابنته مارتا على اهبة الزواج من ابن عمها توماس مان راندولف ، فلما عقد زواجها غادر مونتي سيلو الى نيويورك التي كانت آنئذ عاصمة الاتحاد ، وقد مال في طريقه على فيلادلفيا لزيارة صديقه فرانكلين الذي كان طريح الفراش . سر جيفرسون جداً بزيارة ذلك الرجل اذ انه لم يمر شهر واحد حتى ابلغ ان احكم مواطني اميركا ، يعني فرانكلين ، قد توفي .

كان ماديسون تلميذ جيفرسون اثناه غياب معلمه في اوربا ابرز الاعضاء في غرفة مجلس الممثلين ، وبذلك لم يكن يوجد انسب منه للاستفسار عما حدث في المجلس خلال تلك المدة ، وكم ابرم من

المقررات ولم يبقي قيد الدرس . وكان جيفرسون وهو في باريس قد استنكر تلك الصلاحيات الواسعة والامتيازات التي خص بها الدستور الجديد رئيس الجمهورية دون ممثلي الشعب ، باجازته اعادة انتخاب الرئيس عدة مرات ومنع هـــذا الحق عن ممثلي الشعب ، وماذا جرى بضمان حريات الفرد امام الطغيان — ذلك الهدف الذي قامت عليـــه الثورة ؛ فكتب الى ماديسون مقترحا ان تتوقف الولايات التي لم تقر نصوص الدستور عن التوقيع ما لم تضف اليه طائفة القوانين التي تضمن حريات الفرد ضد الطغيان ، حرية الخطابة والكتابة والاجتماع والاعتقاد ولا اعتقال بلا محاكمة ولا جيوش بلا حرب ولا احتكارات شخصية ؛ كان جورج ماسون يجاهد مع بعض الرفاق لاجل هـــذه المبادىء في الوقت نفسه ، فلما انعقد الكونغرس اثيرت مجددا إلى ان اقرت بمجموعة سميت « قائمـــة حقوق الفرد » .

عاش جيفرسون مدة في بلاد كانت تتغنى ببساطة الجمهورية الفتية الاميركية وتمتدحها .. لكنه لم يكد يتسلم مهام وظيفته الكبيرة ، ويتصل بهذا وذاك من كبـار الاميركيين حتى دهش من بروز الروح الارستقراطية والاقطاعية مجدداً في رؤوس بعض الاميركيين . كانوا يقولون : لماذا يكتفى بلقب السيد لمن يشغل اكبر وظيفة في الجمهورية الاميركية ، فيقال مستر وشنطن مثلا ؟ لكن ماديسون اجابهم بان لقب مستر وشنطن هو : رئيس الولايات المتحـــدة الاميركية !

كان من رأي هاملتون ان تجعل رئاسة الجمهورية في مكان

لا يطاله الشعب ، كما هو ملك الانكليز ، واذا حدث ودعا الرئيس كبار القوم لوليمة فلا ينبغي ان يجلس معهم على المائدة الا مدة قصيرة جداً . ولما كان اعضاء الكونغرس بمثابة النوردات تجاه الملك فان بامكانهم ان يحادثوا الرئيس وجهاً لوجه اما اعضاء مجلس النواب فلا يحق لهم ذلك. كما انه لا يجوز لاجنبي يحمل رتبة دون رتبة السفير ان يو جه الرئيس.. لكن جيفرسون رفض هذه المبادئ الملكية كلها قائلا انها تنقض الاهداف التي قامت الثورة عليهـــا وعليها بنيت مبادئ اعلان الحرية . كانت هـــذه المبادئ ضربة على اوساط الرجعية الكامنة في نيويورك وفيلادلفيا ، ولما حيل بين هذه الجماعة وبين التفاخر على المجتمع بالالقاب والمقاطعات والعبيـــد تمسكت باهداب الثروة والمال .... ومن هنا نشأت تلك الفكرة القائلة عن الاميركيين انهم عباد المال .

كان المبشر الاكبر بهـذا المذهب الرجعي الكسندر هاملتون ناظر خزينة الرئيس وشنطن . ولد في جزر الهند الغربية وكان من حداثته يحلم ان يصير قائداً كبيراً . عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره هبت زوبعة شديدة وكنست جزيرة سان كروا حيث كان هو فكتب عنها وصفاً ممتعاً في جريدة اثار اعجـاب الجمهور حتى تبرع بارساله الى النولايات كي يتعلم . كان اثناء الثورة تلميذاً في كليـة كولومبيا وقد كتب وهو في السابعة عشرة عدة نشرات تأييداً لحق المستعمرات بالاستقلال وبعد سنتين عين ليوتنـــان كولونيل ومساعداً للجنرال وشنطن . كان هاملتون بارعا في فن الكتابة والانشاء فجعله وشنطن كاتم اسراره مع انه كان يلح بان

يرسل الى الميدان لكنه عين في الجيش بعد معركة بوركتون . ثم شغل بعد معاهدة الصلح مركز نائب في اول كونغرس، وقد دلته واجباته حينئذ ان شكل الحكومة الاميركية غير مرضي واخذ ينظم الحملة للتنظيم الدستوري الاساسي وكان من الموافقين على نصوص الدستور الاساسي مع تمسكه ببعض الملاحظات .

منها انه كان يجد الحكومة الاتحادية المركزية لا تتمتع بالسلطات الكافية ، طلب ان رئيس الجمهورية والشيوخ مدى الحياة وان يتمتع الرئيس بسلطات تعدل او تزيد سلطات الملك جورج وان يعين حكام الولايات من قبل الرئيس ومجلس الشيوخ ، وان يحصر حق الانتخاب بالملاكين فقط من افراد الشعب. فلما اعطي وظيفة ناظر الخزينة قبلها بكل شوق والقى بنفسه وسط قبضة من المهام الخطيرة معتبراً نفسه رئيساً للوزارة . . .

هذا الرجل كان اول من قابل جيفرسون على مرفأ نيويورك عند عودته من باريس . تقابل الرجلان وتعانقا وهما لا يعلمان انهما خصمان عنيدان ؟ فقد كانا بعقليتين متناقضتين — وعلى نتيجة صراع هاتين العقليتين كان يتوقف مستقبل اميركا . كان هاملتون يتوسم السعادة في الماضي وجيفرسون يتوسمها في المستقبل . عارض جيفرسون الدستور الاول لانه لم يتضمن قائمة حقوق الفرد اما هاملتون فعارضه لانه يمنح الحكومة الاتحادية سلطة اقوى ، فكل جديد يسر جيفرسون ويغضب هاملتون . . .

في القرن الثامن عشر كانت قد تفشت في اوروبا فكرة تدعو للاخذ بكل ما هو جديد في سبيل اصلاح الامور القديمة ، فكرة

تدعى التقدم ... لكن بعض الناس كان يتخوف من المستقبل الغامض ويؤثر التمسك بالمعلوم بدلاً من المجهول ... غير ان العلم من جهة ، والثورة الاميركية من الجهة الاخرى ، كانا كافيين لاقناع جيفرسون واعوانه بصواب الفكرة الاولى .

فكرة التجدد تقضي على المرء ان يواجه المستقبل بروح الشجاعة والثقة والأمل ، ان يتمسك بعدة الشباب لا بعدة الشيخوخة ... لكن هاملتون لم يؤمن بشيء من هذا بل كان يرى الموجود دائماً خيراً من الذي لم يوجد ... قال آدامز مرة : « ان نظام الحكم الانكليزي حسن اذا نزعت عنه بواعث الفساد . » فأجابه هاملتون على الفور : « ان الحكم بدون بعض الفساد لا يكون كاملا ، اذ ان الفساد يشكل العامل الذي يتيح للهيئة الحاكمة سبيل ادارة الامور كما تشاء ! » كان هاملتون يتزعم الحزب الحكومي (حزب الاتحاديين) ، ويعتبر اقوى عنصر في وزارة وشنطن . كانت الوزارة مؤلفة من اربعة اعضاء : جيفرسون وهاملتون والجنرال نوكس وزير الحرب وادموند راندولف للداخلية . كان نوكس اسبق من هاملتون بآرائه . . يطالب بجيش دائم وبالغاء حكومات الولايات الداخلية ، اما ادموند راندولف فكان من انسباء جيفرسون وابن جان راندولف الذي فر من اميركا للسكن في انكلترا ، انضم لوشنطن منذ سفر والده ، وقد شغل مرة منصب حاكم ولاية فرجينيا . كان مثله مثل الرجل الذي يعجز عن حصر عقله واتخاذ رأي حازم عند التعرض لفكرتين تتشاحنان ، فتكون النتيجة انه يندفع اخيراً وراء الجانب الذي

يجذبه باكثر قوة .

كل هذه الامور كانت مجهولة من جيفرسون عند وصوله الى نيويورك يوم استقبله هاملتون ناظر الخزينة بحفاوة زائدة واخذ يماشيه نحو نصف ساعة طالباً معاونته العاجلة لانقاذ وحدة الولايات من التفسخ . كان الكونغرس ينظر في قضية يعارض ممثلو الجنوب اقرارهـــا بكل شدة ، واذا لم تقرر فان الشماليين ينفصلون عن الاتحاد ... فهل يبذل جيفرسون نفوذه على الجنوبيين ويقنعهم بتغيير موقفهم ، ام يترك وحدة اميركا تتعرض للانقسام ؟ .

لكي نفهم جوهر القضية التي كانت تهدد بانقسام الولايات ينبغي ان نرجع قليلاً ونطّلع على جهود هاملتون وسياسته منها قبل مجيء جيفرسون . كان هاملتون عندما تولى نظارة الخزينة قد وضع منهاجاً اقتصادياً كاملاً يرتكز الى ثلاث نقاط هامة : النقطة الاولى تقضي بان تتعهد الخزينة بدفع ديون الحرب الاهلية بقيمتها الاصلية مع الفائدة القانونية ، الخطة صحيحة من الوجهة الحقوقيـــة ، ولكن الظروف التي رافقتها من البداية جعلتها شائكة ...

في خلال الثورة لم يكن لمجلس اتحاد الولايات (الكونغرس) خزينة منظمة ينفق منها على نفقات الحرب بل كان يدفع معاشات الجنود واثمان المؤن والاطعمة (سندات) على الدولة . وحيث ان حكومة ما بعد الحرب لم تستطع فرض ضرائب باهظة لتدفع قيمة هذه الديون قبل وضع الدستور ، لذلك هبطت قيمتها في الاسواق وقد اضطر اكثر الفلاحين والجنود المسرحين بسبب الفقر والحاجة الى بيع مستنداتهم بعشر قيمتها تقريباً ، اما الاغنياء وكبار التجار

من اصدقاء النواب والشيوخ الذين كانوا على علم بما سيحدث فاخذوا يشترون السندات من حامليها على نطاق واسع حتى استقر معظمها في جيوب قليلة من هذه الطبقة ، لان عدداً من الشيوخ كان قد اخبر اصدقاءه التجار بمضمون الحالة . وهكذا صار تصديق قانون دفع ديون الحرب دولار بدولار مع الفائدة ، من قبل الكونغرس ، عملية تعني اختلاس معاشات الطبقة الفقيرة واعطاءها الى فئة قليلة من الاغنياء ! ايجوز لاعضاء الكونغرس ان يضعوا قراراً ليجعلهم اغنياء ؟ من البدهي ان هاملتون لم يكن يعلم بفصول المؤامرة بل انه تصرف بالامر من الوجهة الحقوقية ، لكنه عندما اطلع على فصولها بعدئذ كان من رأيه ان تصديق القرار يكسب الدولة صداقة الطبقة الثرية وصداقة الاغنياء وذلك خير لها من صداقة الفقراء . ثم ان الحكومة لم تكن تقصد ايفاء الديون فوراً بل استبدالها بسندات جديدة ، الامر الذي جعل حامليها شديدي الاخلاص للدولة متمسكين بها ، اذ كيف يؤمنون اموالهم بدونها !

كانت خلاصة سياسة هاملتون ان الفائدة تجذب للدولة اعلى وافضل طبقة ، والآخرون يشكلون جيشاً قويا مدرباً .

عندما طرحت قضية تمويل القرض الوطني على المجلس اقترح نفر قليل ان تدفع السندات حسب سعرها في السوق لكيلا يستفيد كبار التجار من مشتراها ، ثم اقترح ماديسون ترتيبا يتيح لأصحاب السندات الاولين الاستفادة بقسم منها ، لكن الاقتراحين سقطا وفازت النقطة الاولى من مشروع هاملتون .

غير ان اقرار الدفع الكامل اثار موجة استنكار واحتجاجات

متواصلة من جانب الفلاحين والفقراء ، اذ لما كانت الديون ستدفع من ايراد الضرائب الجديدة المفروضة على الشعب فقد صـــار على الفلاحين ان يدفعوا لمختلسي اموالهم اجرة لاجل هذا الاختلاس ! اخذت تصرفات هاملتون تؤلف حزباً معارضاً بزعامة جيفرسون تسمى بصورة مبدئية باسم معارضي الاتحاديين. ويرتكز على مبدأ معارضة سياسة هاملتون والايمان بالديمقراطية الصحيحة . والواقع ان الاتحاديين لم يكونوا سياسيين كما كانوا يظنون ، كان اكثرهم يعيش في الشرق (نيويورك وفيلادلفيا) متجاهلاً ان تسعة اعشار السكان يعيشون في المزارع والحقول ويرفضون مسايرة رجـــال المال والتجارة على حسابهم ، ثم ان معظم سكان القطاع الشرقي رجال اعمال وغير ملاكين ، فلا يحق لهم الاقتراع ، كان سكان نيويورك من الذكور البالغين سنة ١٧٩٠ – ١٣٠٠٠ رجلا لايقترع منهم سوى ١٣٠٠ ، اما في الغرب فان الحالة كانت بالعكس وكان الواجب السياسي يقضي بمسايرة هذه الاكثرية الكادحة التي كانت عمود الثورة وقلبها النابض ...

لننتقل الى النقطة الثانية في منهاج هاملتون المالي القائمة على اتخاذ ديون الولايات لحساب الخزينة فقد كان على الولايات ايضـاً ديون خاصة مدينة بها للشعب تقـدر بنحو عشرين مليون دولار ، وارتأى هاملتون ان تتخذ الخزينة الاتحادية الديون لحسابها وتسددها هي من مداخيل الضرائب . الى هنا يبدو الاقتراح جميلا وحكيماً لكن بعض الولايات ولا سيما الجنوبية منها كان قد دفع ماعليه او دفع معظمه على الاقل، وبعضها – خصوصاً في الشمال – لم يكن قد

دفع شيئاً بعد ! ففي حال انتقال الديون الباقية الى الخزينة لكي تدفعها من ضرائب تفرض على الجميع تكون الولايات التي دفعت عرضة للدفع مرة اخرى ، بطريقة غير مباشرة ، فهل هذا حق ؟

ما برح هاملتون يعمل على تنفيذ خطته المعروفة ... المشروع يضاعف عدد دائني الدولة فيتضاعف انصارها ... ثم ان انتقال الديون المحلية من الولايات الى الخزينة الاتحادية يزيد اهمية الحكومة الاتحادية ويقلل من اهمية حكومة الولايات . عرضت القضية على الكونغرس فاقرها في جلسته السرية ، ولكن التصويت العلني في المجلسين عاد واسقطها باكثرية ٣١ صوتاً ضد ٢٩ . فانقسم الممثلون الى فئتين ، فئة الشمال وفئة الجنوب وقد تعطلت الجلسات اربعة ايام على امل التوفيق بينهما فلم يحصل اي اتفاق .

هذا ما كان يشغل بال هاملتون عندما لقي جيفرسون على البحر؛ الولايات الشمالية تريد تصديق القانون المذكور وتنوي فعلاً الانفصال اذا لم يصدق. بدأ جيفرسون جهوده للمصالحة بدعوة زعماء الجانبين الى الاجتماع به في غرفته الخاصة او على طاولة الغذاء ، حاثاً اياهم على وجوب الاتفاق بصورة من الصور لاجل وحدة الامة .

كان جيفرسون يعلم ان قضية مكان العاصمة تهم الطرفين ايضاً، وقد دار حولها عدة مناقشات فادخل الموضوع في البحث الجاري لعله يساعد على حل المشكلة الاولى وينحل هو ايضاً .. كانت مسألة تحويل الديون تهم الولايات الشمالية اكثر من قضية العاصمة ، فاقترح مندوبوها بزعامة روبرت موريس ان يقترع اثنان منهم مع الجنوبيين على بناء عاصمة الاتحاد في منطقة بوتوماك مقابل اثنين

من الجنوبيين يؤيدان قانون الديون . وهكذا تم تصديق النقطة الثانية من مشروع هاملتون المالي. قد يأخذ القارىء على جيفرسون هنا جنوحه قليلاً عن سياسته القائمة على تأييد العدالة الشعبية في جميع الظروف ، لكن لا يغرب عن البال ان هدف جيفرسون كان انقاذ الاتحاد من الخطر الاكيد الذي كان يتهدده ، وهذا يعلو المسائل الاخرى التي تعد ثانوية بالنسبة اليه .

كانت نقطة هاملتون الثالثة انشاء بنك اتحادي للولايات تسهم الحكومة فيه بالقسط الاصغر ويترك القسط الاكبر لتوظيف رؤوس الاموال الخاصة . عرض الامر على الكونغرس فاقره حالاً لكنه في مجلس الممثلين هوجم بشدة من جانب المعارضين بقيادة ماديسون ، فلما وصل المشروع ليد وشنطن للتوقيع سأل الرئيس كلاً من هاملتون وجيفرسون ان يضع تقريراً بشأنه . كتب كل واحد رأيه واذا بذلك التفاوت الكبير يذر قرنه في الرأي حول مدى السلطة التي يمتلكها الرئيس فوق الدستور عندما تفسح الظروف له سبيلا لها !..

اختتم جيفرسون تقريره عن قضية البنك بقوله : انه عندما يعرض لشؤون هامة كهذه يراعي دائماً المصلحة الشعبية العامة والنظر الى بعيد .. وبعدما هاجم المشروع لانه غير مناسب وغير دستوري اشار الى خطر تأويل النقطة الدستورية الغامضة على نحو لا يحترم العدالة الشعبية . قال : « اذا كان الرئيس لا يقدر على الجزم بدستورية احد القوانين ، او اذا لم يكن واثقاً من خطأ ارتكبه الكونغرس ، فانه يجب ان يصدق القرار مهما كان الأمر ؛

لان السلطة التشريعية ينبغي ان تأخذ مجراها بقدر الامكان ؛ على الرئيس ان يقلل من استعمال سلطته للنقض بقدر ما يستطيع .

لماذا اصرّ جيفرسون على وجوب تصديق قرار الكونغرس من قبل الرئيس مع انه لا يقره شخصياً ؟ لانه رأى الكونغرس يمثل الشعب اكثر من الرئيس ولا يحق لاحد الوقوف بوجه السلطة الشعبية . . .

وقع وشنطن وثيقة البنك الاتحادي وصار مشروع هاملتون المالي ساري المفعول . بقي على هاملتون ان ينشىء صناعة جبارة تضاهي صناعة انكلترا . كانت الولايات زراعية فمن اين يأتي بالعمال والخبراء لادارة المصانع ؟ تذكر ان نصف عمال مصانع القطن والنسيج في انكلترا من النساء والاولاد فلماذا لا يعمل هكذا ؛ قرر اعتماد هذه الخطة اذ ان غنى البلاد اهم في نظره من ضياع صحة جماعة من النساء والاولاد في المصانع ! ثم قرر فرض ضرائب باهظة على واردات البضائع لحماية الانتاج المحلي من جهة ، ولاغراء المتمولين على انشاء المعامل من جهة اخرى . ثم ساعد على تأسيس معمل كبير للنسيج قرب شلالات باسيك في نيو جرسي حيث هي مدينة باترسون الآن . فهاج الفلاحون لان شروط الامتياز خولت للشركة حق حفر المجاري اللازمة لها في جميع الممتلكات الخاصة . وهاج اصحاب المعامل الاخرى لاعفاء ذلك المعمل من الضرائب واعفاء عماله من الخدمة العسكرية . .

كان هاملتون جباراً في الشؤون المالية والاقتصاد ، عصاميا جريئاً لا شك في اخلاصه وصدق عزيمته . ومع ان مشاريعه جلبت

الثروة لكثيرين من اصدقائه ورفاقه السياسيين فانه ظل شريفاً ونزيهاً كل حياته .

بقيت شهرة جيفرسون ضئيلة بالنسبة الى هاملتون في الوزارة الى هذا العهد ؛ لان الواجبات التي كان يشغلهـــا الاول لم تتسم بطابع ذي اهمية مباشرة للشعب ، كما ان معارضته لهاملتون كانت لم تزل في حكم المبتدئة و كان بدهياً ان تسير ببطء .

obeikandl.com

الخلاف في الوزارة

●

لما صارت حكومة فرنسا جمهورية اغتبط جيفرسون وكان يتمنى لها كل توفيق ، اما هاملتون فقابلها بالبغض والكراهية وكان يأمل من انكلترا ان تزيل تلك الحكومة الثورية من الوجود ، وهكذا طرأ على سياسة اميركا تجاه اوربا مذهبان متناقضان الاول يميل الى انكلترا ويمثله هاملتون، والآخر يفضل فرنسا ويمثله جيفرسون.

كانت انكلترا في بدء عهد الاستقلال وبعهده تأبى ان ترسل الى الولايات وزيراً مفوضاً ، بل كان يعنى بمصالحها الكولونيل جورج بكويث وهو رجل لا يتمتع باية صفة رسمية . فابى جيفرسون بصفته ناظر الخارجية التعامل معه باعتبار ان الحكومة الانكليزية يجب ان تحترم مقام الجمهورية الاميركية بتعيين مفوض رسمي لها فيها . لذلك كان الكولونيل بكويث يعتمد على هاملتون بصورة غير شرعية لقضاء حاجته . واخيرا استبدل بكويث بسفير مفوض يدعى جورج هاموند . فسار هاموند على خطوات سلفه ، ثم انه كتب الى رؤسائه في لندن قائلا انه يفضل الا يتعامل مع جيفرسون الا عند الضرورة ! وكانت الحكومة الانكليزية تحتفظ ببعض جيوش

في شمال غربي الولايات بالرغم من معاهدة الصلح التي قضت بوجوب جلاء هذه القوات عن كافة البلاد الاميركية .

فلما فوتح السفير الانكليزي بهذا الشأن اجاب ان وجود القوات الانكليزية في تلك المنطقة ظاهرة طبيعية لانها — اي المنطقة — محمية انكليزية ! فبعث جيفرسون الى حكومة لندن بمذكرة شديدة اللهجة يرفض فيها الحجة الواهية ويهدد باتخاذ تدابير عملية ضد بقاء قوات الانكليزية في شمالي الولايات . لم يكن جيفرسون يريد الحرب بل كان يقصد انزال العقوبات الاقتصادية . فصعق هاموند لهذه المفاجأة وبادر يطلب النجدة من صديقه هاملتون . فطمأنه هاملتون الى ان مذكرة جيفرسون لا تعبر عن رأي الحكومة مجتمعة ورأي الرئيس ، بل تنم بالاحرى عن شعور جيفرسون الى الانكليز .. اخذ هاموند هذه المعلومات وبعث بها الى حكومته في لندن مقترحاً ان تتجاهل الحكومة الانكليزية مذكرة جيفرسون والا تجيب عليها . ففعلت حكومة لندن هكذا . ظلت خطة هاملتون هذه مكتومة مدة غير قصيرة فلما اكتشفت زادت التوتر داخل الوزارة .

في ربيع سنة ١٧٩١ وقع حادث كشف النقاب عن الخلاف القائم ووضع النقاط على الحروف ... كان حزب الاتحاديين على رأسه هاملتون يصدر جريدة للنطق بلسانه تدعى نشرة الولايات المتحدة يحررها جون فينو ، وكانت هذه الجريدة قد نشرت في الشتاء مقالات تهلل وترحب لظهور مؤلف للكاتب ادموند بورك بعنوان «تأملات في الثورة الفرنسية» ...

كان الكاتب ادموند بورك قريباً لقلوب الاميركيين اذ انه وقف ايام الثورة مؤيدا موقفهم ضد مليكه . لكنه كان الان قد بلغ الستين ولعل ثورة واحدة كانت كافية لذهنية ذلك الانكليزي. ثم انه لما ابلغ كيف هاجم الرعاع قصر فرسايل واخرجوا الملكة ماري انطوانيت تحت الشتائم واللعنات اخذت الدموع تتساقط من عينيه ... فكانت اروع قطعة في التأملات وصف جمال واناقة وفتوة الملكة ... لكن كان من حسن حظ الجمهوريين في اميركا ان الكاتب توماس باين الذي لعب دورا هاماً خلال الثورة، كان في هذه الاثناء بانكلترا، وهو مؤلف كتاب «منطق الحالة» سنة ١٧٧٦ الذي كان من عوامل اعلان الحرية ، وصاحب المقالات التي نشرت بعنوان «الازمة» خلال فشل الثورة فكانت باعثا على اعادة النشاط الى المجاهدين .

حالما ظهر مؤلف بورك «تأملات في الثورة الفرنسية» هب توماس باين للعمل واصدر كتابه حقوق الانسان المدفاع عن مبادىء الثورة الشريفة ورد تهم بورك . وقبلما تتمكن الحكومة الانكليزية من وضع يدها عليه كان قد تسرب الى الايدي بكميات كبيرة ومنها الى اميركا . كان احد اصدقاء ماديسون اول من تسلم نسخة منه هناك فاستعارها ماديسون وبعث بها الي جيفرسون . فانتعشت افكار جيفرسون لهذا الدفاع البارع عن الديمقراطية . ولما الح صاحب الكتاب بطلب نسخته لاعادة طبعها في فيلاديلفيا اجابه جيفرسون انه سيرسل الكتاب رأساً الى المطبعة حالما يتم قراءته . قرأ جيفرسون الكتاب ثم ارسله الى الطابع مع كلمة لطيفة

يعتذر فيها عن سبب تأخره القصير هكذا – « يسرني جدا ان يعاد طبع الكتاب هنا كبادرة شعبية ضد الخداع السياسي القائم ضدنا . ولا اشك في ان مواطنينا سيعتمدون مرة اخرى على مثل منطق الحالة » ...

فلما ظهرت طبعة الكتاب لم يكن عجب جيفرسون اقل من عجب خصومه السياسيين عندمـــا وجد الكتاب متوجاً بكلمته الصغيرة هذه تحمل اسمه ولقبه الرسمي كمقدمة الناشر ... وقف السفير الانكليزي يستوضح قصد ناظر الخـارجية الاميركية من دعم نشرة منعها جلالة الملك . وثار ثائر الارستقراطيين في فيلادلفيا وهاج نائب الرئيس جون ادامز الذي عد القضية كلها مؤامرة عليه؛ كذلك فعل ابنه في بوسطن جون كنيس ادامز الذي جلس لساعته واخذ يكتب سلسلة مقالات تطعن بتوماس باين وتوماس جيفرسون والديموقراطية وتمتدح نظام الحكم الانكليزي !

اما ماديسون فكان يدافع عن جيفرسون في كتاباته ، ووراء ماديسون كان جمهور الفلاحين والمزارعين الذين قـــاموا بالثورة وتقبلوا مبادىء اعلان الحرية برزانة وثبات . واخذت منـــاوأة الجمعيات والاندية الشعبية لرجعيـــة الاتحاديين تنمو وتنتشر في الارجاء . وهكذا شطر المجتمع الاميركي الى حزبين سياسيين واضحي المبادىء والغايات .

تكتل معارضو الارستقراطية حول مبـــادىء الجمهورية الديموقراطية ولمسوا الحاجة الى جريدة تنطق بلسانهم وتعمل لهم ما كانت تعمله نشرة الولايات لهاملتون وحزبه. وهكذا ظهر العدد

الاول من النشرة الوطنية في ٣١ اكتوبر سنة ١٧٩١ يحررهـــا الشاعر فيليب فرنو .. كان فرنو محرراً مثالياً لمجلة الديموقراطيين ثوري الروح وحر التفكير ويكره الانكليز. حوى العدد الاول منها مقالات تمتدح جيفرسون وانصاره وتهاجم يورك وسياســة هملتون ، ونشرت في اعدادها التالية سلسلة المنافع الشخصية واسماء الشيوخ والممثلين الذين اثروا بتأييدهم مشاريع هاملتون .

كان هاملتون يقرأ اعداد المجلة على مضض ، متهما جيفرسون بكل مراحلها ، الى ان نفد صبره وجعل يوافي مجلة فينو بمقالات سامة تحمل تواقيع مستعارة ، مدعياً ان جيفرسون كان ينفق من خزينة الدولة على المجلة اجرة لها على مهاجمة الدولة !

اخيراً ساء الرئيس وشنطن ان تصل المشادة في قلب الوزارة الى هذا الحد المفضوح فكتب الى الرجلين يرجو منهما ان يقدروا صعوبة مركزه هو بسبب الخلاف القائم ، وان يتدبرا المسألة برحابة صدر في سبيل الصالح العام .

اجاب هاملتون انه كتب المقالات الموقعة بامضاءات مستعارة في مجلة فينو لان جيفرسون ما فتىء يهاجمه منذ قدومه من فرنسا ، وانه اصدر المجلة المذكورة ليقاومه ويجعله مكروهاً من الشعب . وقال جيفرسون انه يعارض هاملتـون لا لسبب شخصي بل لان السياسة التي يتبعها تجعل للخزينة سلطة على مجلس ممثلي الشعب ، الذي يجب ان يظل مصدر السلطة ، وان هاملتون هو الذي يتدخـل في شؤونه الخاصة بنظارة الخارجية وسياسة الدولة تجـــاه الانكليز والفرنسيين .

وهكذا لم تكن مساعي الرئيس موفقة في انهاء الخلاف المتأصل بل ان حمـــلات حزب هاملتون والارستقراطية على جيفرسون تزايدت حتى تضايقت اعصابه وصار يتمنى الانسحاب من الوزارة. ايصبح الرجل الذي لقب في فرنسا بنبي النظـام الجديد والحريات الاربع موضع سخرية واستهزاء القضاة والاساتذة والحـــكام في فيلاد لفيا ؟ ... ولما جاء شهر آذار سنة ١٧٩٢ كان جيفرسون يجمع اوراقه ويعد عدته للرحيل الى مونتي سيلو ، اذ ان الرئيس كان لا يزال له مهنة واحدة في الحكم بعد .

لكن في الخريف اعيد انتخاب الرئيس وشنطن فاخذ يترجى جيفرسون ان يسحب استقالته ويظـل من معاوني الرئاسة . وقد ايد هذا الرجاء كل من ماديسون ومونرو وبايج وادموندراندولف قائلين ان جيفرسون يجب ان يبقى ليحفظ البـــلاد من سطوة الاتحاديين ، ولكي لا يقال ان هملتون طرده من الوزارة ، فنزل جيفرسون عند رغبة هؤلاء وقرر ان يبقى في الوزارة موقتاً ...

لم يكد جيفرسون يعتمد البقاء بالوزارة الى جانب الرئيس حتى نشب العراك مجدداً وبصورة اشد من ذي قبل بين حزب الجمهوريين الديمقراطيين وحزب الاتحاديين . نشأ الخلاف بسبب حادث جينيت الذي اضطر الحكومة الاميركية ان تقرر موقفهـا بصراحة تجاه كل من انكلترا وفرنسا .

كانت حكومة الثورة الفرنسية قد اوفدت ادموند شارل جينيت وزيراً مفوضاً لها لدى جمهورية الولايات المتحـدة . جاء على ظهر المدمرة امبوسكاد ولما وصلت المدمرة الى ميناء شارلستون نزل

الوزير الى البر وامر المدمرة ان توافيه الى فيلاد لفيا لانه يريد ان يكمل سفرته ضمن الولايات لكي يتعرف جيداً على شعب الجمهورية الشقيقة . وهكذا توافدت الجماهير خلال مروره على الطرقات تهتف لممثل الثورة الفرنسية حتى اثار مجيئه ضجـــة كبرى وهو لم يبلغ العاصمة بعد . . .

وصلت المدمرة الى فيلادلفيا قبل السفير ، وحال وصولهـــا اطلقت خمس عشرة طلقة تحية منها للخمس عشرة الولاية الاميركية ، وقد تهافت سكان المدينة الى ظهر السفينة فقوبلوا بحفاوة قلبية .

اما في الوزارة فقد كانت الامور قائمة قاعدة ، كيف ينبغي ان تعامل الحكومة الاميركية هذا السفير النشيط : اعد هاملتون بضعة اسئلة في هذا الشأن ورفعها الى الرئيس لمناقشة الوزارة :

السؤال الاول —

هل يقبل جينيت اولا ؟

هاملتون — « نعم ، بشروط » .

جيفرسون — « نعم ، بدون شروط » .

السؤال الثاني — هل نتعامل مع جينيت اذا قبلناه ؟

هاملتون — حكومة الثورة لم تثبت ان اعدام الملك كان بحق فلماذا نندفع نحن للتعامل معها ما دامت الدول المحترمة تقاطعها ؟ نقبله لكن لا نعامله كوزير .

جيفرسون : اذا قبلنا الوزير فقد اعترفنا بحكومته . كيف نعترف بوجود دولة بقبول سفيرها ثم نأبى التعامل معـــه حتى لا نعترف بدولته !

السؤال الثالث : ما موقفنا من معاهداتنا القديمة مع فرنسا ؟

هاملتون : لقد عقدنا المعاهدات مع الملك والآن لايوجد ملك فالمعاهدات اصبحت ملغاة ...

جيفرسون : المعاهدات عقدت مع الشعب الفرنسي عندما كان يقضي شؤونه بواسطة ملك . اما بواسطة من يتدبر شؤونه اليوم فليس من شأننا . يجب ان نتذكر اننا نحن ايضاً غيرنا حكومتنا بعد توقيع المعاهدات ، والاشخاص والحكومات تتغير وتتبدل ولكن الشعوب والمعاهدات لا تتغير .

هذه الآراء التي عبر عنها جيفرسون بهذه المناسبة اصبحت القاعدة المثلى لدى نظارة الخارجية الاميركية لحل معظم المشاكل الدولية المماثلة فيما بعد ...

اخيراً قرر وشنطن قبول مهمة جينيت الرسمية مع اتخاذ جانب الحياد التام تجاه حروب فرنسا وانكلترا وسائر الدول الاوربية .

أتمّ جينيت سياحته المظفرة في فيلادلفيا بعد مجيء المدمرة باسبوعين ، وقد استقبل من جانب جيفرسون بحفاوة زائدة لكنه عندما تقدم الى الرئيس فوجيء باستقبال بارد . لم يستطع ان يفهم لماذا يقف الرئيس واكثر الوزراء ورجال الكونغرس موقف الحذر والعداء من حكومة الجمهورية الفرنسية في حين انه لحظ على الجماهير الشعبية في كل مكان تأييداً اجماعياً لحكومة الثورة الفرنسية؟.. هذا التفاوت الكبير بين سياسة الحكومة و مشيئة الشعب أهاب بالسفير المندفع ان يبتدىء بالعمل . فادعى ان المحالفات المعقودة بين الحكومتين الفرنسية والاميركية تخول فرنسا حق جمع متطوعين

من اميركا للمساهمة باعتقال المراكب الانكليزية؛ لكن جيفرسون ابلغه ان الرئيس التزم جانب الحيـــاد حيال الحروب والمشاغل الاوربية وانه لذلك لا يسمح له بجمع المتطوعين . فقال جينيت : « ولكن الشعب الاميركي ليس على الحياد ! » أجابه جيفرسون : « ان ذلك قد يكون صحيحاً ولكن الرئيس قد قرر . . . »

ـ « الرئيس ! » قال جينيت « اليست هذه جمهورية، والشعب هو الذي يقرر بواسطة الكونغرس ؟ !.. » أجاب جيفرسون : « ان دستور الولايات ينص على ان الكونغرس يشترع القوانين وان الرئيس ينفذها . . . »

وليس من سلطة على الرئيس في شؤون التنفيذ . . . فوقف جينيت وانحنى ساجداً للوزير جيفرسون وقال : « لم يكن بوسعي ان أجامله على دستور كهذا . »

ومنذ ذلك الحين اصبحت اكثر تصرفات جينيت سخيفة جداً، وظل يعتقد انه يستطيع ان يستشهد بالشعب اكثر من الرئيس ! ثم انشأ جمعية ثورية فرنسية وألف جيشاً صغيراً من المتطوعـــين والفرسان . وحـدث ان المدمرة الفرنسية (امبوسكاد) كانت قد أسرت سفينة بريطانية صغيرة تدعى ساره الصغيرة فوافاها جينيت الى المرفأ وعمدها باسم الديمقراطي الصغير ثم جهزها ليسافر بها من نقطة لا تبعد ميلين عن قصر الرئيس في فيلادلفيا . . . كان وشنطن حينئذ غائباً في جبل فرنون وكان جيفرسون قد اعلم جينيت ان لا يدع السفينة « الديمقراطي » تترك الميناء قبل عودة وشنطن ، كان يظن انها تحمل اسلحة اميركية ومتطوعين، وكان ينتظر رجوع

الرئيس ليقول رأيه فيها. اما هاملتون فكان يهيء بطارية مدفعية على جزيرة مد لضرب السفينة اذا حاولت الخروج !

« كيف يتلقى هاملتون اهانات الحكومة الانكليزية بلطف ثم يجيء ليبني لها بطارية تدافع عن مصالحها ! » تذكر جيفرسون ذلك فكاد يصير صوابه ...

« ان بناء بطارية يدفع السفينة للحركة ، وهنالك اسطول فرنسي يترقب الفرصة للتدخل واشعال النار » .

فتوقف العمل لبناء البطارية، ولما عاد وشنطن تضايق من تباين وجهات النظر بالوزارة واعتزم ان يحيل جميع هـــذه القضايا في المستقبل الى المحكمة العليـا لتحكم بها كما يقضي القانون المجرد . وبعد ثلاثة ايام ترك الديمقراطي الصغير المرفأ .

اعدت الحكومة الاميركية قائمة باعمال جينيت غير الدبلوماسية واعتراضات جيفرسون عليها ثم طلبت الى فرنسا سحب سفيرها ؛ كانت هذه الرسائل اخر عمل قام به جيفرسون كناظر للخارجية . انه اعتزم نهائيا ان يستقيل رغم معارضة الرئيس .

استدعت فرنسا سفيرهـا وطلبت من الحكومة الاميركية بالوقت ذاتـه استدعاء سفيرها موريس من باريس الذي لم تكن تصرفاته دبلوماسية ايضاً. على ان جينيت عاد الى الولايات المتحدة رجلا عاديا فتزوج ابنة جورج كلنتون حاكم نيويورك واستحصل على الجنسية وصرف بقية عمره هناك .

فرنسا ام انكلترا ؟

●

استقال جيفرسون من وظيفته في آخر يوم من السنة ١٧٩٣ فسمح له ان يصرف سنتين ونصف السنة في المكان الذي احبه — في مونتي سيلو ... اعاد بناء البيت واشتغل بالزراعة وقابل الزوار والاصدقاء القدماء وكتب عشرات الرسائل. كان مسرورا جداً. فقد تجاوز الخمسين وكان يتوقع ان يقضي بقية حياته مزارع بسيطا لذلك ظل يرفض رجاء وشنطن ان يرجع لاستلام مركزه السابق.

اما هاملتون فاستقال بعد جيفرسون بسنتين كي يمارس المحاماة في نيويورك لكنه ظل يرئس حزبه السياسي .

مرت الايام واعلن الرئيس وشنطن انه لن يقبل اعادة انتخابه للرئاسة للمرة الثالثة اذ ان رئاسته تكاد تنتهي . فهب الجمهوريون بصوت واحد يرشحون جيفرسون للرئاسة اما الاتحاديون فقد رشحوا جون ادامز. على ان ترشيح ادامز عن الاتحاديين لم ينسجم مع مشاريع هاملتون . كان ادامز اتحاديا مخلصا لكنه لم يكن يستقبل الاوامر بسهولة ولم يكن يعتقد ان الشمس تشرق وتغيب بمشيئة هاملتون ، لذلك عارض هاملتون ترشيحه واخذ يعمل لاجل اسقاطه بترشيح اتحادي قوي آخر للرئاسة هو توماس بنكني .

كانت نتيجة ذلك الصراع وخيمة جدا على هاملتون ، اذ ادى الى فوز ادامز بالرئاسة وجيفرسون بنيابة الرئاسة . نال ادامز ٧١ صوتاً وجيفرسون ٦٨ صوتاً . كان الذي يلي الرئيس بعـــدد الاصوات حينئذ يصبح نائبا للرئيس . على ان ادامز ابقى وزارة وشنطن في مركزها ، تلك الوزارة التي كان اكثر اعضائها تحت نفوذ هاملتون وحزبه من الاتحاديين .

في الرابع من آذار ١٧٩٧ عين جيفرسون رئيسا لمجلس الشيوخ . لم تكن رئاسة الشيوخ متعبة مثل نظارة الخارجية فانصرف الى التنظيم الداخلي وسن جملة قوانين داخلية ما تزال قائمة الى اليوم كما كان قد فعل لوزارة الخارجية . وفيما هو وسط هذه التنظيمات الهادئة اذ بـه يتعرض لحملة واسعة تشن عليـه من الداخل بسبب من موقفه القديم من فرنسا .

بعـــد استدعاء السفير الاميركي موريس من باريس عينت الحكومة الاميركية جيمس مونرو سفيراً في محله . فاستقبل الشعب الفرنسي وحكومته مونرو المعروف بصداقته لجيفرسون استقبالا منقطع النظير وكان يلقى معاملة خاصة . لكن شعبية مونرو في فرنسا اغضبت الحكومة الاميركية التي كانت واقعـة تحت نفوذ الاتحاديين فاخذت تخلق له المشاكل . كان مونرو قد ابلغ فرنسا عند وصوله بناء لتعليمات حكومته ان لاتتوقع عقد محالفة اميركية ـ انكليزية لان ذلك بعيـد الاحتمال . واذا بالايام تكشف عن معاهـــدة اميركية انكليزية وقعها في لندن جون جاي السفير الاميركي . فوقع الخبر على الحكومة الفرنسية وعلى السفير مونرو

وقوع الصاعقة . ثم ان الحكومة الفرنسية لم تقتنع بان الوزارة الاميركية قد خدعت سفيرها بل اتهمت السفير بسوء النية وبذلك فقد مكانته واستدعي الى اميركا .

كانت المعاهدة نصرا للاتحاديين لانها جمعت بين الانكليز والاميركيين قليلا ، لكنها كانت من الوجهة الفنية مضرة لاميركا وذلك لتضمنها السماح للانكليز باستعمال السفن الاميركية والبحارة وهم بحالة الحرب . فصار من حق فرنسا ان تهاجم المراكب الاميركية العاملة لحساب الانكليز . وكان وشنطن قد ارسل الجنرال بنكني الاتحادي المعروف الى فرنسا سفيرا له لدى حكومتها فرفضت الحكومة الفرنسية قبوله ؛ كانت هذه المشكلة الاولى لعهد ادامز بالرئاسة . . .

وجد الاتحاديون الوقت غير مناسب لاثارة المشاكل مع الفرنسيين بعدما هب القسم الاكبر من الاميركيين يريد محاربة الملك جورج نكاية بمعاهدة (جون جاي) فاقترح هاملتون ارسال بعثة اميركية الى اوربا لمصالحة الفرنسيين . وحتى تأتي البعثة ممثلة الوحدة الاميركية ارتأى الجنرال نوكس لسان حال هاملتون ان يصحب جيفرسون البعثة ممثلا الحزب الجمهوري . فكتب الرئيس ادامز الى نوكس يقول : « ماذا يقولون في اوربا لو ارسل ملك فرنسا شقيقه الاكبر وولي عهده ممثلا الى الخارج » ان جيفرسون يشتغل الآن نفس المقام بالنسبة للرئاسة . . . ثم انه سأل جيفرسون اذا كان ماديسون يوافق على الذهاب مع البعثة لكن ماديسون عتذر وابى ان يذهب . وفيما جيفرسون يحاول اقناعه اذا بوزارة

ادامز كلها تهدد بالاستقالة اذا انضم ماديسون الى البعثة . . . فالوزارة اتحادية وماديسون جمهوري متطرف . واخيراً شكل ادامز البعثة من الجنرال بنكنسي (اتحادي) وجون مارشال (اتحـــادي) والبريدج جيري جمهوري من موقعي ميثاق الحرية .

كان وزير خارجية فرنسا حينئذ (تليرلند) ، ظل رجال البعثة ينتظرون عدة ايام ، واخيراً فوجئوا ليلا بمجيء الوفد مؤلفاً من ثلاثة رجال تسموا بثلاثة حروف (ه. و. ي.) كانت ترمز الى ان طريق النجاح يتسم بتمجيد ظفر رجال الثورة الفرنسية ! ولما تراجع الموفدون الاميركيون غير مصدقين آذانهم ، لم يكن من المفاوضين الفرنسيين الا ان هزوا اكتافهم . . .

عقد المفوضون الاميركيون عدة جلسات مع المفاوضين الفرنسيين (و. ه. ي.) . والواقع ان الثورة الفرنسية كانت بحالة روحية سيئة الآن ، فقد فقدت حماستها ونشاطها وحسن تدبيرها واخذت تتدحرج من الجانب الآخر نحو سلطة نابوليون ، اذ ان وجود رجل مثل تليراند في المركز الذي يشغله كان يكفي لتصوير سوء الحالة ! وقد ذهل ماديسون لهذه الحماقة في استقبال الوفد وعدها عاملا على جر اميركا نحو انكلترا . واخذت صحف الاتحاديين تهاجم فرنسا وتتهمها بشتى التهم . وانشأ الكونغرس نظارة خاصة للبحرية . وهب هاملتون الذي كان الى وقت قريب يطلب ارسال جيفرسون الى فرنسا للتهدئة ، هب يدعو الى الحرب وقطع العلاقات مع فرنسا . لكن موقفه الجديد لم ينشأ عن حادث (و. ه. ي.) .

كان بين مجاهدي الثورتين الاميركية والفرنسية محارب ومغامر

جريء من فنزويلا يدعى (فرنسيسكو ميراندا) . اخذ ميراندا يفكر بتدبير ثورة في اميركا الجنوبية ضد اسبانيا بمساعدة انكلترا واميركا . وقد قابل السفير الاميركي في لندن (روفس كنج) واطلعه على تفاصيل الفكرة ، فكتب هذا الى هاملتون واعلمه بكل ما يلزم .

كانت الخطة تتوخى ربط اسبانيا بحالفة مع فرنسا ثم تعلن حكومة الولايات الحرب على فرنسا فتصيب اسبانيا ايضاً وبذلك تنزع سلطة اسبانيا عن اميركا الجنوبية ، وماذا يكون نصيب الولايات المتحدة من هذه الغنيمة الكبيرة ؟ قد تكون كوبا او فلوريدا .. وكان اهم ما شغل بال هملتون من المشروع ان يصبح القائد العام للقوات الاميركية في اميركا الجنوبية .

أصاب جزء كبير من خطة التحطيم جيفرسون بصفته رئيس الحزب الجمهوري الذي كان العائق الوحيد لمشروع الحرب . كان جواسيس الاتحاديين يرقبون كل كلمة يقولها على مائـــدة الطعام ليلتقطوا حولها الاكاذيب ويحملوها الى الصحف المهاجمة ؛ واخـذ الاتحاديون يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضيـــة الى الجمهوريين وازاحتهم من الطريق . وبالرغم من معارضة المفكرين منهم امثال هاملتون ادخلوا الى المجلس القانون الذي أوجد تلك المرحلة المسماة بمرحلة « حكم الارهاب الاميركي » .

لم يكن الحزب الجمهوري مستعداً لمواجهة العاصفة . كان يرئس الكتلة الجمهورية في الكونغرس البرت كالاتن وكان عليه ان يتلقى الهجمات بمفرده ويرد التهم . كان من عائلة سويسرية نبيلة ، وقـد

جاء الى مستشوست سنة ١٧٨٠ مع عدد من المهاجرين فاوصلته حيانه العقلية واستقامته وسلامة تفكيره الى تسلم قيادة الحزب الجمهوري داخل الكونغرس. بدأت الحملة بالقول ان كالاتن سويسري الجنسية وان فرنسا حليفة سويسرا ، فذعر اصدقاؤه وخافوا ان ان يقفوا الى جانبه ، وبذلك نجح الاتحاديون في حمل الكونغرس على اقرار شرعة آليان التي نصت ان على الاجانب ان يسكنوا خمس عشرة سنة في اميركا حتى يحصلوا على الجنسية ، وانه يحق للرئيس ابعاد كل اجنبي يظنه مضراً .. كانت الشرعة موجهة ضد الفرنسيين على الخصوص وضد مؤيدي الجمهوريين بالتالي .

لكن الشرعة لم توضع موضع التنفيذ ، لان اكثر المهاجرين الفرنسيين كانوا من الملكيين الفارين من وجه الثورة الفرنسية وهؤلاء يؤيدون مبادىء الاتحاديين في حين ان القادمين من انكلترا كانوا من مضطهدي الحزب الملكي وانصار الجمهورية ، فكيف يطردهم الاتحاديون وهم انكليز ؟ اما الجمهوريون فاعتبروا الشرعة مؤامرة فاشلة وكانوا يكرهونها لاعتقادهم ان الولايات المتحدة يجب ان تظل ملجأ الاحرار والمضطهدين كل الاوقات . ثم ان الاكثرية الاتحادية عادت وسنت شرعة اخرى في الكونغرس سميت شرعة العصيان تفرض السجن والغرامة على كل من يظهر اية مقاومة لسياسة الحكومة. كان المقصود من الشرعة كنس الاندية الديموقراطية ومنع نشوء اي انتقاد يوجه ضد التدابير الحكومية. فكان القضاة يسجنون من يريدون بتهمة نقد السلطة وتحريض الشعب عليها .

نجح الاتحاديون بارسال المحررين الاحرار الى السجون لكنهم لم ينجحوا بتحطيم الحزب الجمهوري بل بالعكس استفزت هـذه التدابير الشعب واقاموا البلاد عليهم بسياسة الضغط على الحريات كما توقع هامتون . وحالما تراخت الايدي الضاغطة عادت الاندية والتكتلات الديموقراطية الجمهورية الى الظهور على نطاق واسع .

حينئذ هب جيفرسون للعمل وبدأ يعد العدة اللازمة للقضاء على الشرعتين المخالفتين لنصوص الدستور الذي يضمن حرية الفكر والقول والعمل لجميع الافراد . قال ان الشرعتين من صنف القوانين التي يضعها الحكام العابثون بالدستور حماية انفسهم من الامة !

بينما جيفرسون في مونتيسيلو يمضي ايام العطلة سنة ١٧٩٨ جاءه الى موانتي سيلو رجلان يستشيرانه في وضع خطة عملية لمهاجمة الشرعتين الظالمتين ، وهما ولسن نيكولاس أحد زعماء فرجينيا وجون بوكنريدج من اتباع جيفرسون المخلصين . ارتأى الرجلان ان افضل طريقة تكون بان تصدر مجالس الولايات التمثيلية قوانين تشجب شرعتي اليان العصيان لمجرد كونها مخالفتين لنص الدستور . فأيد جيفرسون الفكرة وكتب لهما صورة القانون الواجب صدوره عن مجلس كل ولاية . فأخذ بوكنريدج صيغة القانون وعرضه على مجلس ولاية كنتكي فأقره حالا واخذ ماديسون القانون ذاته وعرضه على مجلس فرجينيا فأقره ايضاً . وهنا عزم انصار جيفرسون على اتباع الخطة نفسها في كل الولايات . كانوا يعلمون ان تصديق القرار في الولايات التي للاتحاديين فيها اكثرية صعب ، لكنهم علموا ان التناقش في القضية بالمجالس والصحف يفتح عيون الناس على

حقيقة الامور الجارية ضد حرية الفرد فيربح الجمهوريون الكثير من الانصار .

كانت روح الدعوة للحرب قد فقدت معظم نشاطها عند الشعب لكن الاتحاديين تغاضوا عن ذلك واخذوا يقتسمون الرتب العسكرية العالية . فالقيادة العليـــا ينبغي ان تظل بيد الجنرال وشنطن لكنه لما كان قد تجاوز السن صار هاملتون يطمع بتولي القيـادة العملية من بعده. لكن ادامز لم يكن يحب هاملتون كثيرا بسبب ما كان يخلق له من المشاكل ، والتعيين يجب ان يأتي عن طريق ادامز . غـــير ان هاملتون لم يترك للرئيس الوقت اللازم لتقرير مـا يريده بل ذهب واقنع واشنطن فكتب هـذا يؤيد هاملتون وهكذا عين هاملتون قائدا أعلى للجيش .

وهنـا تصاعدت رائحة الحكم العسكري من جميـع الجهات واخذت الجرائد تنشر بلاغات القيادة العسكرية للاهلين . كان من تقاليد الحكم العسكري حينئذ تدريب الجنود على اعتبار المدنيين كأنهم غير موجودين . اما الشعب فكان يرى القادة والجنود ويقرأ البلاغات الصادرة عن القيادة العسكرية ، لكنه لم يكن يعلم من هو العدو وأين هو ...

بعد عودة مارشال وبنكني من مفـاوضة الحكومة الفرنسية بقي جيري في باريس ممثلا للحكومة الاميركية. اخيراً دعا تليراند وزير الخارجية السفير الاميركي واعتـذر له عن كل ما بدر سابقاً وأكد ان فرنسا لا تريد محاربة اميركا بتاتاً بل بالعكس تريد توثيق علاقاتها بها لكنها تطلب سفيراً اميركياً ليس ضد النظام الجمهوري

ولا مع الانكليز. ولكي يثبت الوزير الفرنسي حسن نيته وصدق كلامه ، بعث الى السفير الاميركي بصورة قرار جديد كانت الحكومة الفرنسية قد اتخذته لضمان سلامة السفن والمراكب الاميركية ضد كل اعتداء من جانب القطع الفرنسية .

فهرول (جيري) عائداً الى اميركا اعتقاداً منه انه يحمل خبراً سارّاً ، لكن تقريره حمل خبراء الاتحاديين على القول ان فرنسا اصبحت خائفة وانها لذلك سهلة الانهزام ، فكانت معلومات جيري فعلا مسرة ، ولكن لقصد معكوس ، لكن جيفرسون لم يقدر ان يضبط شعوره ازاء الحادث الخطير ، وما لبث حتى وجد في الاتحادي بنديكتون رغبة صادقة للعمل على تهدئة روح الحرب وتجنيب البلاد ويلاتها . لم يكن احد يتصور ان جيفرسون يتعاون مع بنديكتون لكن الرجلين كانا يتفقان على حب الاستقامة والحق والسلام . طلب جيفرسون من بنديكتون ان يكتب تقرير جيري بلغة بسيطة مختصرة يسهل على عامة الشعب قراءتها . فيكون نشر التقرير من قبل احد الاتحاديين ضربة قاضية للداعين منهم الى الحرب ومؤثراً على الشعب .

اخذت قضية الحرب تضعف يوماً فيوماً ، خصوصاً بعدما اعلن لافايت عن استعداده للقدوم الى اميركا لحل المشاكل القائمة . ثم ان تليراند نفسه كان صديقاً للرئيس ادامز وقد صرف معه عدة ساعات في بيته ، ارسل مذكرة لطيفة اليه يقترح اعتبار ما مضى قد مضى ويدعو الى احياء الصداقة القديمة .

كان الدكتور لوغان احد اصدقاء جيفرسون قد ذهب الى

فرنسا بصفة غير رسمية لدرس الحالة عن كثب . فجاء بتقرير يثبت ان ما من فرنسي واحد يريد محاربة اميركا . فثار ثائر دعاة الحرب من الاتحاديين وحملوا الكونغرس على وضع شرعة ارهابية جديدة سميت شرعة لوغان تحرم اي اميركي من التحدث بالشؤون السياسية الاميركية مع اجنبي ، ويحظر على الاميركيين التكلم بالسياسة المحلية بحضور احد الاجانب .

وفي غفلة من الدهر وقعت الواقعة ، ولكن ليس على الجمهوريين بل على الاتحاديين ... كان آدامز يدرس تقارير جيري ولوغان واخيراً وليم موراي سفير اميركا بهولندا بخصوص القضية الفرنسية ، فلم يلبث حتى اعلن ان اميركا لن تحارب فرنسا لعدم وجود ما يبرر الحرب ، وفي شهر شباط من سنة ١٧٩٩ عين موراي سفيراً لدى الجمهورية الفرنسية .

كان لجيفرسون الفضل الاكبر برجحان قضية الحزب الجمهوري في هذا الوقت العصيب وذلك لسببين — اولهما انه كان يجرب دائماً ان يضع الحقائق المجردة في متناول الشعب ، والآخر انه كان يوضح للشعب بعد ذلك خطة العمل . فقد طبع ووزع من النشرة التي كتبها بندلتون عن قضية تقرير جيري عشرات الالوف عدا مئات الرسائل والخطابات الخاصة التي كان يرسلها يومياً .

قابل الشعب قرار الرئيس بكل غبطة ، وكانت صحف الجمهوريين تهاجم عدة الحرب من الوجهة الاقتصادية على الخصوص . الحرب تتطلب نفقات هائلة — نفقات هائلة لحرب غير ضرورية .. فتقارير السفراء اثبتت ان فرنسا لا تريد محاربة الولايات ولا مطمع لها

فيها والولايات لا مطالب اقليمية لها مع احد فلماذا الحرب ؟ ..

كان منهاج جيفرسون للحزب الجمهوري الآن يرتكز : اولاً على معارضة شرعتي اليان والعصيان لخطرهما على حريات الشعب ، معارضة وجود جيش قائم ، الاكتفاء بالمليشيا لحالات الدفاع حيث يصبح المدنيون جنوداً دون ان تكون الجندية مهنتهم الخاصة ...

اما الجهاز الحاكم فيجب ان يكون بسيطاً ومقتصداً الى ابعد حد . لا يجوز ان يؤخذ من سلطة الولايات المحلية لصالح الحكومة الاتحادية ولا يجوز ان يؤخذ من حقوق الكونغرس لصالح الرئاسة!

كتب جيفرسون ملخصاً افضل المبادىء : « انا مع حرية التجارة مع جميع الامم ، ضد اية معاهدة سياسية مع اية دولة » .

كل بلاد زراعية كانت ام صناعية يتوخى شعبها الرخص قبل جميع الامور وحرية التجارة من اكبر عوامل تخفيض الاسعار . اما المعاهدات السياسية مع الخارج فكانت تشكل خطراً على نمو الديموقراطية في الولايات حينئذ .

« انا مع حرية المعتقد وحرية النشر ضد جميع الوسائل غير الدستورية التي تحاول قطع ألسنة الناقدين بالقوة لا بالاقناع . »

« اتوسم الاصلاح في كل ماهو جديد ومبتكر لا في الرجوع الى الوراء ... اعمل على تشجيع تقدم العلوم في جميع الميادين » .

على هذه المبادىء كان جيفرسون يأمل ان يؤسس حزبه ، لكن جواسيس الاتحاديين والرجعيين كانت تحيط به وتعرقل عليه انفاسه ، حتى ضاق بها ذرعاً وقرر العودة الى بيته في فرجينيا والعمل هناك بهدوء . ولما شعر انه قد اتم الواجب لف امتعته وعاد الى مونتي سيلو يعيش كمزارع بسيط ، كان ذلك في خريف سنة ١٨٠٠ .

جيفرسون للرئاسة

●

بينما كان جيفرسون يضي عطلته في مونتي سيلو تم نقل عاصمة الولايات الى وشنطن في حزيران ١٨٠٠، وهي المدينة التي بنيت على بوتوماك بناء على الاتفاقية التي وقعها ممثلو الولايات اثناء الخلاف على تصديق منهاج هاملتون المالي . ومع ما كانت عليه من الوحشة والركاكة فقد كانت لجيفرسون اكثر مما كانت فيلادلفيا لهاملتون. اذ في شهر تشرين الثاني من تلك السنة انتخب جيفرسون لرئاسة الولايات المتحدة !

لقد حورب انتخابه بجميع الوسائل القانونية منها وغير القانونية ولم يكن هاملتون يامل اسقاط الجمهوريين فقط بل كان يرجو فشل آدامز ايضاً . جرب اولا تطبيق وشنطن كي يرشح نفسه ضد ادامز لكن وشنطن لم يكد يتسلم رسالة هاملتون حتى كان قد توفي . ثم كتب نشرة ينقد فيها سياسة ادامز ويطلب انتخاب بنكني للرئاسة ؛ وكانت نتيجة الخلاف الداخلي بين الاتحاديين ان زاد عدد المقترعين لصالح الجمهوريين ...

وهكذا عاد الشعب الاميركي وتمسك بمبادىء ميثاق الحرية تاركا المبادىء الرجعية جانبا .

ففشل ادامز وبنكني وفاز جيفرسون و بور لكن جيفرسون وبور نالا عدداً متساوياً من الاصوات ـ وهنا نشأت مسألة دستورية عويصة ، نص الدستور ان صاحب العدد الاكبر بعد الرئيس يصبح نائبا للرئيس والواقع ان الجمهوريين اعطوا اصواتهم الى بور على هذا الاساس . وقد نص الدستور ان في حال تعادل اصوات المرشحين يصير على مجلس ممثلي الولايات ان يحكم بينهما ، لكن هـذا المجلس كان لايزال باكثريته اتحادياً ...

كان هاملتون يكره بور اكثر من اي رجل آخر في العالم ، خصوصاً لانه كان السبب خسارته منطقة نيويورك . كان بور رجلا طموحاً شديد الشبه بهاملتون في اخلاقه . فم تظهر عليه اية رغبة بالرئاسة ، كما انه لم يكن يظهر الوهـد علناً . ظل صامتاً . وكان هذا الغموض فيه من عوامل ارتياب اكثر الجمهوريين بشخصه وفي جملتهم جيفرسون ...

اعلن جيفرسون من جهته انه يؤيد الاحتكام الى مجلس ممثلي الولايات ، وهكذا انعقـد المجلس بجلسة سرية لانتخاب الرئيس ، وحضر الشيوخ كشهود . كان لكل ولاية من الولايات العشر صوت واحد ، فكان على الفائز ان ينـال تسعة اصوات . في الاقتراع الاول نال جيفرسون ثمانية اصوات وبور ستة ، وتعذر على ولايتين اتخاذ قرار نهائي . واعيد ايضاً وايضاً وظل يعاد كل الليل والنتيجة ما زالت مكانها . اقترح موريس ان يصار الى مفاوضة الاتحاديين فرفض جيفرسون . وبعـد اسبوع جرى الاقتراع للمرة السادسة والثلاثين ففاز جيفرسون بعشرة اصوات مقابل ستة .

ادرك الاتحاديون انهم مواجهون عهداً ليس في ايديهم فعليهم ان يستفيدوا من البقية الباقية لهم في الحكم بقدر المستطاع اذ ان الرئيس الجديد لا يتسلم الرئاسة قبل الرابع من شهر آذار وهم الآن في تشرين . فجعلوا يوظفون كبار الاتحاديين في الوظائف الكبيرة الشاغرة ثم حملوا الكونغرس على اقرار انشاء جملة محاكم يشغلها قضاة من الاتحاديين ما دام القضاة يعينون مدى الحياة . اعترض جيفرسون بصفته رئيس مجلس الشيوخ (الكونغرس) على انشاء محاكم ليست البلاد بحاجة اليها ولكن اعتراضه لم يؤثر . وقد اقر الكونغرس المشروع وانشئت المحاكم وعين قضاتها ، لكن الوقت كان يمر بسرعة ، وقد جاء الثالث من آذار ومعظم مراسيم التعيينات لم يكن قد وقع بعد ، في ذلك المساء جلس ناظر العدلية جون مارشال ينسق المراسيم ويوقعها .

كان جيفرسون قد اختار ليفي لنكولن ناظراً للداخلية ، وقد قيل عن ذلك التعيين في تاريخ العائلة ان جيفرسون دعا لنكولن الى بيته واسلمه ساعته ، وامره ان يذهب عند نصف ليل ٣ — ٤ آذار الى قصر الرئاسة ويتسلم وظيفة مارشال واوراقه . فلما كانت الساعة طرق لنكولن باب مارشال طالباً تسلم المكتب واوراقه بأمر الرئيس ...

فبادره هذا بقوله : « ماذا ؟ الرئيس لم يفوض بعد ؟ فالساعة لم تبلغ الثانية عشرة ... »

فسحب لنكولن ساعته من جيبه واسلمها له قائلا هذه ساعة الرئيس وهي التي تضبط الساعات ...

فتلفت مارشال نحو الطاولة والاوراق غير الناجزة آسفـــا، لكنه كان قد وضع في جيبه الرزمة الـــتي تم توقيعها وقد لقب المعيّنون بموجبها بـ « قضاة نصف الليل » .

قرر جيفرسون تشكيل وزارته من رجـال حزبه البارزين فعين ماديسون ناظراً للخارجية والبرت كالاتين ناظر الخزينـــة ولنكولن الداخلية .

انصرفت الوزارة قبل كل شيء الى تطهير ما افسده الاتحاديون فاصدرت عفواً عن جميع المعتقلين في السجون بموجب شرعـــة العصيان واعادت الغرامات الى اصحابها والغت وظائف قضاة نصف الليل . وقد ارسل جيفرسون الى جميع مضطهدي العهـد السابق رسائل شكر وتشجيع .

كان توماس باين الآن في فرنسا يعيش في منزل حقير منسياً من البلاد التي عمل من اجل انشائها الكثير والقليل - الا يرجع الى الولايات التي احبها واحبته وصار بامكانـه ان يسكن فيهـا حراً سعيداً ؟ بعث جيفرسون له بطاقة بدعوة الى وطنه الاول فقبـل الدعوة بسرور لكنه كان يخاف العودة في مركب عادي لئلا يقع في قبضة الاسطول الانكليزي الذي لم ينسه .

التأم الكونغرس ثانية في كانون الاول سنة ١٨٠١ ، لكن جيفرسون لم يحضر جلسة الافتتاح لالقاء كلمة الرئاسة كما جرت العادة الى ذلك الحين ، بل ارسل خطبة القيت عن لسانه . فثارت صحف الاتحاديين لهذا الخروج عن التقاليد قائلة هل يسيء جيفرسون ان يعمل ما يتفاخر به ملك انكلترا ؟ اما هو فـكان قد عمل ذلك

لانه لم يكن خطيباً بارعاً في الالقاء . ثم انـــه كان يكره المظاهر الفارغـــة وحمل الامجاد العالية ولم يلبث حتى الغى عادة وضع صورة الرئيس على النقود وقطع دابر الهـــدايا عن قصر الرئاسة ومنع الاحتفالات التي كانت تقام لمناسبة عيد مولد الرئيس وسائر العادات المأخوذة عن الانظمة الملكية والاقطاعية .

اهم حادث تاريخي حصل اثناء رياسة جيفرسون كان مشترى ولاية لويزيانا والشرق. عندما بلغت حدود الولايات المتحدة الغربية ضفاف المسيسبي صار يهمها كثيراً شأن الدولة التي تمتلك مدينـة اورليانز الواقعة على مصبه لان النهر كان السبيل الوحيد للمواصلات والتجارة العائدة الى الوف المزارعين الاميركيين في الغرب . عندما كانت المدينة في قبضة اسبانيا الدولة الضعيفة كانت الامور تسير بانتظام ، لكن نابوليون اخذها من اسبانيا سنة ١٨٠٢ والغى الاتفاقيات المعقودة واقفل الميناء بوجه التجارة الاميركية .

فلاح خطر الحرب من جديد لكنه صدر هذه المرة عن رغبة سكان الولايات الغربية المزارعين . اما ســـكان الولايات الشرقية واكثرهم من الاتحاديين فتمسكوا الآن بمبـادىء السلم ! اعتمـد الرئيس سياسة المفاوضة اولاً لأنه لم يكن في زمانه نصيراً للحرب وارسل روبرت لفنكستون الى فرنسا للوصول الى اتفاقية سلمية مع نابليون مهما كان الامر. اقترح لفنكستون ان تشتري الولايات المتحدة المدينة لقاء ستة ملايين دولر لكن الرئيس الفرنسي لم يعد بشيء . فعاد جيفرسون وارسل جيمس مونرو ليساعد لفنكستون في المفاوضة . لكن قبيل وصول مونرو كان نابليون قد تعرض

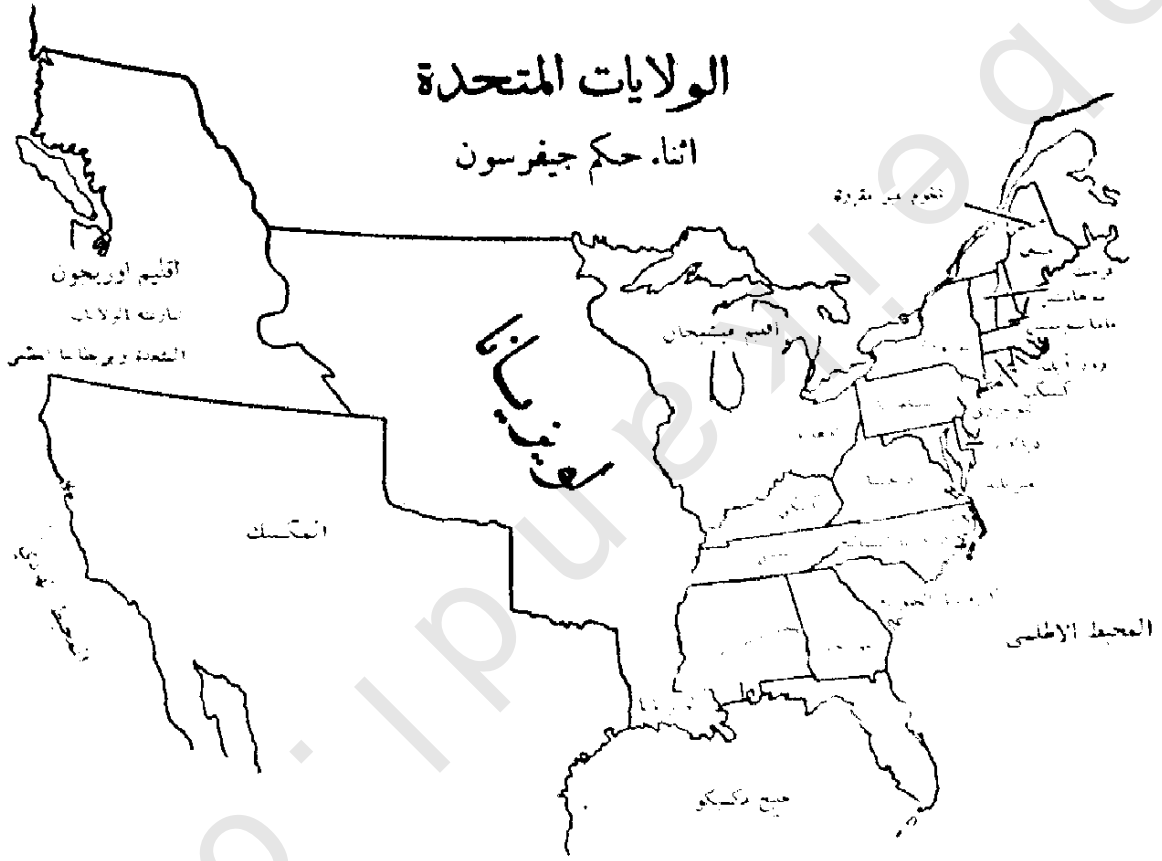

تظهر هذه الخريطة اتساع لويزيانا المشتراة من فرنسا سنة ١٨٠٣ وذلك اثناء حكم جيفرسون، وبها زادت مساحة الولايات الاصلية اكثر من الضعف .

obeikandl.com

لخطر داهم جعله يتخذ قراراً جازماً في هذا الشأن . وجد انه على اهبة حرب بحرية جديدة مع انكلترا والاسطول الانكليزي يسبق الاسطول الفرنسي بعدة مراحل فكيف يستطيع الرئيس الفرنسي حماية اورليانز والممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار ؛ ثم ان الحرب تتطلب مبلغاً طائلاً من المال فمن اين يأتي به ؟ دعا لفنكستون وقال : « اعطوني خمسة عشر مليوناً من الدولارات لقاء اورليانز ولويزيانا ايضاً ! .. »

ذهل لفنكستون لكنه ضبط انفاسه ، ايشتري قارة تكاد مساحتها توازي الولايات المتحدة ؟ كان هذا دون ما عرضه هو للمفاوضة . لكنه تمالك وتابع المفاوضة بكل جد الى ان جاء مونرو وشاركه بالتوقيع على الاتفاقية .

لم يكن اعظم من استغراب جيفرسون لاقدام الفرنسيين على اعطاء لويزيانا الامبراطورية بهذه السهولة ... لكن الامر ما برح يثير الارتباك ، فهل الدستور يمنح الرئيس حق اقرار عمل كهذا ؟ فكر مدة بسن تشريع جديد بالدستور لكن الوقت ليس باليد ، فقد يحدث ما يقلب عقل نابليون . فلا بد من تصديق الاتفاقية واغتنام الفرصة .

كم كانت نقمة الاتحاديين عظيمة إذ ان لويزيانا تعني مئات المزارع الجديدة والوف المزارعين الجدد ... من انصار جيفرسون والجمهوريين . كانوا على حق ، فقد بعثت هذه الاراضي الشاسعة في نفوس الاميركيين من ذلك الحين حب المغامرة والاكتشاف الذي ظل يدفعهم غرباً حتى بلغوا ساحل الاوقيانوس الهادىء ، وصار

ومزاً لكل اميركي صميم . تألفت من هذه الامبراطورية الولايات الآتيـــة : لويزيانا واركنساس وميزوري وايوي وداكوتا ونبراسكا وكنساس واوكلاهوما مع قسم كبير من كولورادو ومونتانا وويومنغ وداكوتا الشمالية ومينسيوتا ، كان القسم الاكبر من هذه الاصقاع لايزال مجهولا .

اتاحت هذه الفرصة للرئيس جيفرسون تحقيق ما طالما فكر به وهو ارسال بعثة كشفية لاقتحام مجاهل الغرب ودرس اسرارها . كان جيفرسون يحلم بذلك منذ كان في فرنسا ، وقد جرب حينئذ ان يدفع الرحالة الفرنسي لديارد للقيام برحلة استكشافية ، فلما بلغه ان الكابتن كراي اكتشف سنة ١٧٩٢ نهر كولومبيا على الباسيفيكي تضاعفت حماسته واقترح على الجمعية الاميركية الجغرافية تنظيم بعثة على ان يساعد هو وانصاره بنفقاتها .

تنظمت هذه البعثة فعلا بادارة مدويث لويس ، وهو شاب من فرجينيا في الـ ١٩ من عمره وبدأت عملها لكن مرافق لويس الفرنسي استدعي من قبل حكومته فجأة وبذلك تعطلت الرحلة وعـــاد لويس في السنة ١٨٠١ فشغل وظيفة كاتم اسرار الرئيس جيفرسون .

في شهر كانون سنة ١٨٠٣ كان الكونغرس يتناقش في انشاء مراكز تجارية للاتصال بالقبائل الهندية فاغتنم الرئيس الفرصة وبعث برسالة الى الكونغرس تنصح بعدم تجاهل اهمية هنود وادي ميزوري وان افضل وسيلة لتنظيم شبكة التجارة والعمل مع هنود الغرب تتطلب ارسال بعثة استكشاف قبل اتخاذ اي قرار .

اقر الكونغرس ايفاد البعثة وخصص لها مبلغاً متوسطـاً من

المال وعاد الرئيس فزاد المبلغ متبرعاً من جيبه . كان لويس خير من يستطيع القيام بهذه المهمة فهو يحسن لغة الهنود ويملك صفات القيادة وكان خبيراً بالغابات ومراقباً طبيعياً بارعاً، وفوق كل شيء كان يعرف ماذا يريد جيفرسون ...

سأل لويس اذا كان يستطيع اصطحاب رفيقه القديم في حمل السلاح ، وليم كلارك ، كان كلارك هذا الاخ الاصغر لوليم كلارك الذي قاد فصيلة صغيرة اثناء حكم جيفرسون بفرجينيا واسر القائد الانكليزي المرسل لاثارة الهنود .

في خريف سنة ١٨٠٣ كان لويس وكلارك في سانت لويس عند مصب ميزوري يمرنان رجال البعثة على فنون الاستكشاف لبدء الرحلة بالربيع . كان خبر ابتياع الولايات المتحدة لمستعمرة لويزيانا من نابوليون قد عم تلك البلاد لذلك اعتقد الناس ان هدف البعثة زيارة الارض المشتراة .

في ١٤ أيار سنة ١٨٠٤ انجرت البعثة على ثلاثة زوارق متبعة مجرى نهر ميزوري . كانت مؤلفة من اربعة عشر جنديا وتسعة متطوعين ومترجم هندي وزوجته وخادم كلارك الزنجي ، ويرافقهم بضعة عشر رجلا ايضاً الى مسافة معينة . صرفوا ذلك الشتاء في داكوتا الشمالية بين هنود ماندان ثم تابعوا التجذيف صعوداً حتى بلغوا المكان الذي عنده ينقسم النهر الى ثلاثة فروع دعاها لويس: جيفرسون وماديسون وكالاتن ... ومن هنا اتبعوا نهر جيفرسون حتى وصلوا الى جنوب غربي مونتانا حيث قدم لهم هنود شوشون الخيول لاجتياز سلسلة الجبال الصخرية ، بعد ذلك اتبعوا نهر

كولومبيا على قوارب صغيرة وبلغوا البحر من الجانب الآخر في ١٥ تشرين الثاني ١٨٠٥ . اجتازت البعثة بمدة سنة ونصف السنة نحو اربعة آلاف ميل ، ولقيت عشرات القبائل الهندية التي لم تشهد رجلا ابيض من قبل ، واكتشفت انواعاً من الضباع والغزلان والماعز لم تكن معروفة ، وجمعت عينات من الأتربة والاملاح والمعادن والنباتات غريبة عجيبة ... كانت اول رحلة استكشافية بلغت الباسيفيكي براً باجتيازها القارة الاميركية شمالي المكسيك ، وبذلك وجهت انظار المغامرين الاميركيين للتوسع والامتداد غرباً نحو مناطق الاوروغون كما كان يتمنى جيفرسون تماماً .

صرفت البعثة شتاء سنة ١٨٠٦ على ساحل ذلك الاوقيانوس ، وفي ٢٣ اذار قفلت راجعة فبلغت مدينة سانت لويس بمدة ستة اشهر ، اي ثلث المدة التي صرفوها في الصعود . رجع لويس وكلارك الى وشنطن كرجلين قاما بما فرض عليهما على احسن وجه فقوبلا بحفاوة بالغة ومنحا مقاطعات غنية من الارض . وعين الكابتن لويس حاكم القسم الشمالي من لويزيانا وكلارك قائداً للميليشيا فيها .

كان من رأي هاملتون ان تظل الحكومة مدينة لفئة الاغنياء لكي يظل هؤلاء سنداً لها عند الملمات مادامت اموالهم عندها ، لكن هذه الحالة تجعل الدولة دائماً اداة لفائدة الاغنياء وخدمة مصالحهم . ثم ان جيفرسون لم يرد ان يجعل ابناء الشعب عرضة لايفاء دين آبائهم على الدوام ... كل جيل يجب ان يفي ديونه ! ولا يجوز ان تكون الدولة مدينة لأحد . وهكذا باع جيفرسون وكالاتن حصة الدولة في بنك الولايات الاتحادي ايفاء المديون ودفعا

ثمن لويزيانا من بيع الاراضي للفلاحين باسعار مخفضة . ثم اختصرا ثوب الحكومة الاتحادية الفضفاض على اسلوب اقتصادي ثابت خول السلطة الاستغناء عن عدة مناصب و وظائف كانت قد انشئت لتشغيل صنائع الاتحاديين حتى صار بإمكان الكونغرس تخفيض الضرائب الى درجة محسوسة .

كان هدف جيفرسون ان يكمل مدة رياسته والبلاد جد مرتاحة لادارة الحزب الجمهوري . كانت شعبيته مكتسحة جميع الولايات وكان في مقدوره الآن ان يحسب نفسه اسعد رجل في العالم. لكنه فوجىء و هو على القمة بمصيبة عائلية جديدة افقدته معظم سروره اذ ان ابنته ماريا ماتت فجأة . « قد فقدت نصف ما املك » — قال جيفرسون تعليقا على الحادثة . عند ذلك ذهبت ابنته الاخرى مارتا للسكن الى جانب والدها في البيت الابيض .

انتهت مدة الرئاسة وجرى الانتخاب الجديد سنة ١٨٠٤ ففاز جيفرسون ايضاً باكثرية ١٦٢ ضد ١٤ نالها منافسه الاتحادي بنكني. كانت هذه النتيجة ضربة قاضية على الحزب الاتحادي يتلقاها بعد مصيبته بموت هاملتون قتلا في تموز ١٨٠٤ . ذلك ان العداء بين بور وهاملتون بلغ اخيراً الذروة فاستفز الاول الثاني ودعاه للمبارزة كما كانت العادة حينئذ، فتبارزا وقتل بور خصمه هاملتون وكان عمل بور هذا خاتمة حياته السياسية !

اما نيابة الرئاسة فربحها هذه المرة جورج كلنتون حاكم ولاية نيويورك وقد اضيف الى الدستور مادة تجعل انتخاب الرئاسة والنيابة بصورة منفصلة .

وضع جيفرسون امامه في ولايته الثانيـة ان يشجع نمو العلوم والمعارف ويدفع الشؤون الثقافية والادبيـة والفنية الى الامام . كان ذلك سهل المنال الان ما دامت ميزانيـــة الدولة سالمة من الديون ، لكن المشاكل الاوربية حالت دون تحقيق ما كان يريده لها. كانت انكلترا وفرنسا في حالة حرب ضروس تتنازعان السيادة على اوربا وقد هب الاسطول الانكليزي سنة ١٨٠٦ بفرض الحصار على فرنسا لارغامها على التسليم بدافع الجوع. فوقف نابليون يعلن الحصار هو ايضاً على الجزر البريطانية . كان حصار نابليون في غير محله لانـه لم يكن يملك المراكب الكافية ، لكن حصار انكلترا لفرنسا كان فعالا الى درجة خطيرة بالنسبة الى تجـــارة ومصالح الولايات المتحـدة . صار الاسطول الانكليزي يعتقل المراكب الاميركية ويصادر الرجال والبضاعة غير مكترث بما تفرضه القوانين الدولية اثناء الحرب تجاه الدول المحايدة ، وعاد الاسطول الفرنسي ينسج على منواله... فهب قسم كبير من الاميركيين يريد الحرب على الانكليز لاعتدائهم على المصالح الاميركية ، وهب قسم آخر يريد محاربة الفرنسيين للاسباب ذاتهـا ... اما جيفرسون فكان ينظر الى كل من نابوليون وجورج الثالث نظرة واحدة، فكلاهما يمثل حكم الطغاة المستبدين بصالح الشعوب ، فلماذا تنصر اميركا الواحد على الآخر؟ اميركا تنصر الحكم الديموقراطي الجمهوري الذي يحترم حقوق الافراد ، لكن ما العمل تجاه الاعتداآت المتكررة على المراكب والبضاعة الاميركية ! ..

فحمل الكونغرس على اصدار قانون كانون الاول سنة ١٨٠٧

بمنع المراكب الاميركية من التوجه الى اي مرفأ اوربي ؛ ظل القانون المذكور متبعا مدة سنة بكل هدوء وسلام ، لكن صناعة المراكب وعمليات النقل البحرية توقفت بل كادت تموت . ثم هب المزارعون الذين اتلفت محاصيلهم في المستودعات بانتظار السماح بالتصدير . وما برح التذمر يروج ويتسع حتى عم معظم اقتصاديات البلاد واضطر الرئيس وهو في آخر ايام رئاسته ان يطلب تعديل قانون المنع بشكل يخفف من الازمة نوعا ، وفي آذار ١٨٠٩ اصدر الكونغرس قانونا آخر يحذر الاتجار مع فرنسا وانكلترا فقط . وقد كان من تأثير هذا القانون على الفلاحين ان افقد جيفرسون القسم الاكبر من تلك الشعبية التي كانت له في النفوس وكان آخر توقيع له القرار الذي اصدره الكونغرس سنة ١٨٠٨ بمنع استيراد العبيد الى الولايات .

عندما بدأ الترشيح لانتخاب الرئيس الجديد اقترح ثمانية مجالس للولايات اعادة انتخاب جيفرسون للمرة الثالثة فانتعشت روحه لهذه البادرة اللطيفة ، وبينما الولايات الاخرى تدرس الموضوع قطع هو حديث ترشيحه باعلانه الرفض البات . قال مع ان الدستور لا يمنع ذلك لكنه يرى تقصير مدة الرئاسة افضل للديموقراطية واسلم عاقبة .

وهكذا جرى الانتخاب وفاز ماديسون صديق جيفرسون وحبيبه المخلص ، فاطمأن قلب الرئيس السابق وابتهجت نفسه اذ ايقن ان البلاد برئاسة ابنه ماديسون تظل ديموقراطية حرة تسير على الطريق التي يريدها هو لها . . .

في آخر ايامه

●

على اثر عودة جيفرسون الى حياته الريفية في مونتي سيلو أخذ بعض الشبان يتوافد عليه ياخذ رأيه في شتى المواضيع الدراسية . فكان جيفرسون ينصحهم ان يضعوا نصب اعينهم العلوم بصورة اجمالية فيما يؤول الى سعادة وحرية الانسان .

هنا تنبهت في نفس جيفرسون تلك الفكرة التي شغلت عقله زمناً طويلا وهي تأمين حرية التعلم لابنـــاء الولاية من الدرجة الابتدائية الى الجامعية . كانت جهود ماديسون ورفاقه في سبيل تحقيق هذا الحلم تصطدم فيما مضى بعراقيل الاقطاعيين من زعمـــاء الولاية. لكن جيفرسون قرر هذه المرة ان المشروع يجب ان يتم .

كان لجيفرسون صديق صغير السن يدعى جوزف كابل مغرم بالعلم مثله فنصحه جيفرسون ان يدخل مجلس ممثلي الولاية ليتسنى له ان يساعد على اصدار قوانين تساعد على اباحة التعليم للكبار والصغار . فرشح الشاب نفسه لعضوية المجلس وفاز . وفي السنة ١٨١٠ انتخب لتمثيل الولاية بمجلس الشيوخ الكونغرس وظل فيه ١٩ سنة . ثم عرضت عليه عدة وظائف في وزارات ما ديسون ومونرو فاعتذر مفضلا البقاء في فرجينيا للسهر على سير النهضة

الثقافية وتقدمها .

اخذ كابل يجاهد لتأسيس الجامعة التي عدها واجبا مقدساً فاكتشف جملة مخاصمين - اولهم الجهال الذين ياخذون الامور العامة بعدم المبالاة ، ثانيا كلية وليم وماري التي لم يكن يوافقها وجود جامعة الى جانبها في نفس الولاية ، وثالثاً المتدينون الذين حسبوا المؤسسة لا دينية استنادا الى ان جيفرسون اعلن انها ليست طائفية ...

وبمرور الزمن عثر جيفرسون على مكان بطريق الصدفة جعله يتم الفكرة دون مساعدة الولاية . كان في صباح احد ايام سنة ١٨١٤ يسير منحدرا على طريق قرب تلة ليست بعيدة عن بيته فمر بجماعة من اساتذة مؤسسة علمية صغيرة (اكاديمي) يتباحثون فيما كان يعترض مشروعهم من المصاعب . كان يرئس مجلس المؤسسة بيتر كار ابن اخت جيفرسون وابن صديقه القديم دابني كار ، فما ان رأى بيتر جيفرسون ماراً حتى ناداه قائلا : « لنأخذ رأي جيفرسون فهو خبير بشؤون التربية والتهذيب » .

حالما اطلع جيفرسون على مجمل القضية وابدى ملاحظاته عليها وانصرف خطر على باله خاطر مفاجىء : لماذا لا نجعل من هذه الاكاديمي الصغيرة الجامعة التي نريدها ...

عرضت الفكرة على اصحاب المؤسسة فايدوها وهكذا بدأ العمل لتحويل الفكرة الى حيز الوجود وسميت الكلية المركزية . كان جيفرسون مثقلا بالديون ومع ذلك فقد تبرع لها بالف دولار ولم تمر ثلاث سنوات حتى كانت الكلية في طريقها الى الامام .

اخيراً استطاع كابل بعـــد جهود جبـارة اصدار سندات لانشاء جامعة ولاية فرجينيا وبادر جيفرسون فاقنع ادارة الكلية ان توافق على اهداء المؤسسة الى الولاية لكي تصبح الجامعة التي ينوي كابل تاسيسها. فتكون الجامعة في المكان الذي اراده لها جيفرسون، اي امام بيته .

كان اصحاب جيفرسون يعلمون انه يريد الجامعة قرب بيته ولقد كان هذه الامر من عوامل غيرتهم الزائدة ومن عوامل انجاح المشروع - فمن يغار على الفكرة اكثر منه ومن يجاهد ويكافح في سبيلها بقدر ما يكافح هو ؛ ظل ذلك الشيخ الجليل اربعين سنة يعمل من اجل الجامعة وها هي تتأسس ليرئسها وهو ابن ٧٤ سنة . . .

انصرف جيفرسون اولا الى دراسة المظهر الخـارجي للجامعة فقرر ان الجامعة لا يجوز ان تتألف من مجموعة بنايات فخمة متلاصقة بل ان بناياتها يجب ان تملي الروعة والهدوء وصفو الخاطر في قلوب الشبان وانفس المدرسين . تسر النظر وتنبه الفكر وتصور جمال الطبيعة وهدوءها ؛ تجمع بين الفن والغاية النبيلة - فتجذب الزوار والمعلمين من اقاصي الارض - وهنا وجد جيفرسون نفسه مرة اخرى بحاجة الى كتابه الهندسي القديم بالاديو .

رأى جيفرسون ان دوائر الجامعة يجب ان تتألف من مجموعة بنايات صغيرة انيقة تشبه القرية ؛ تكون كل بناية مخصصة لنوع واحد من الادارة او العمل ، يتشكل الطابق الاعلى من البناية من غرف سكن مدير الفرع المخصصة البناية لاجله والطابق الاسفل من دور واسعة للتدريس والقاء المحاضرات ؛ تتصل البنايات ببعضهـا

بطرق ضيقة معبدة ومسقوفة وسط جنائن من الازهار . اما البناية المركزية فاتخذ شكلها عن بناء الهيكل الروماني الشهير بانتيون هيكل جميع الالهة ، وجعل شكل دور المنامة والطعام العشر شبيها باقدم البنايات الرومانية واليونانية الشهيرة .

كان على الجامعة ايضاً ان تاخذ بقوانين داخلية جديدة لم تعرفها مؤسسة جامعية من قبل ؛ فهي بدون رئيس ، ومجلس اساتذتها ينتخب احد اعضائه لادارة الجلسات لمدة سنة واحدة ؛ والاساتذة احرار في استعمال الكتب التي يريدونها ...

تؤلف الجامعة من الوجهة العلمية من عشر كليات او مدارس عليا ولكن عندما افتتحت في آذار ١٨٢٥ لم يكن فيها اكثر من سبع كليات اضيف اليها في السنة التالية كلية الحقوق ، وكانت كل واحدة من الكليـــات الاخرى مخصصة لموضوع واحد من هذه المواضيع : اللغات القديمة ، اللغات الحديثة ، الرياضيات ، فلسفة الطبيعيات ، الفيزيا ، فلسفة الآداب ، الكميا ، الطب . من يكمل دراسة كلية واحدة (موضوع واحد) يعطى درجة واحدة (متخرج) ومن يكمل اكثر من موضوع واحد ويتعهد بتقديم شيء جديد للعلم يعطى درجة دكتور . ابتدأت الجامعة بـ ١١٦ تلميذاً وكان كل واحد يختار الموضوع الذي يريده بعكس الحالة التي كانت متبعة في هذا الشأن . .

كانت العادة الدارجة في الولايات انتماء كل جامعة الى احدى الطوائف ؛ فكان يرئس الجامعة دائماً احد رجال الكهنوت ، لكن جيفرسون لم يسمح باتباع هذه الخطة في جامعة فرجينيا .

كان يسمح لرجال الكهنوت من جميع الطوائف بعقد الاجتماعات الدينية ايام الراحة لكن حضور هذه الاجتماعات لم يكن مطلوباً من الطلاب بوجه اجباري ..

كان جيفرسون يريد من التلميذ ان يحكم نفسه تقريباً، فلا يعمل شيئاً مكروهاً، ولا يمتنع عن شيء خوفاً من العرف والقانون ؟

يجب ان يترك الولد لاختيار ثقته بنفسه وامتحان امانته ؛ كان يؤيد طريقة الامتحان الحر القائم على شرف الطالب لكن الطريقة لم تتبع الا بعد وفاة جيفرسون بـ ١٦ سنة .

احب جيفرسون ان يبقى على صلة بكل استاذ وطالب من اعضاء الجامعة فكان المعلمون ضيوف مونتي سيلو الدائمين وكان الطلبة يدعون الى بيته جماعات مؤلفة من اربعة او خمسة طلاب مرة كل اسبوع ؛ كان يحادث كل واحد بمفرده ان لم يكن قبل الغداء فبعده لكن سمعه اخذ يضعف يوماً بعد يوم حتى صار لا يسمع اكثر من صوت متكلم واحد بوقت واحد ...

عندما بلغ جيفرسون الثمانين صار يتعذر عليه تقديم النصح والمعونة لابناء الجامعة فشرع يفكر بحاجة الولاية الى مرصد جوي ودائرة للجراحة ... فمن اين يأتي بالمال ؟

لم تكن ظلمة المستقبل تضعف عزيمة جيفرسون في وقت من الاوقات ، فالجامعة قد اصبحت موطدة الاركان ، وصار بامكانها ان تثابر على التقدم بدونه ، ولئن مات فان ذكره يحيا بها في قلوب الناشئين الى الابد .

قد يتوهم القارىء ان انشغال جيفرسون في مشروع الجامعة

وبنايتها وقوانينها وتنظيماتها انساه الغاية التي استقال من اجلها وهي التمتع بالحياة الريفية الزراعيـة ؛ كلا، فانه ظل يزرع بستانه ويعنى بمزرعته . والواقع ان الجامعة نفسها كانت من نتاج ذلك البستان باشجارها الجميلة وأزهارها النادرة ، واجمـل الازهار كان الاولاد اللاعبون فيه — اولاد بنائه ... كان هؤلاء يتبعون خطوات جدهم كيفما مشى واينما جلس ، وكان يتفقد لعبهم ويجري لهم مسابقـات يوزع بعدها الجوائز على السابقين ، يراقب دراساتهم ويعاونهم على كتابة الرسائل ومجاوبتها كلما حانت له فرصة .

كان كلما تقدم في السن ازداد تمسكا بالعمل وعدم اضاعة الوقت . كان يبدو كأنه يعصر البقية من وقته لتوزيعها على جلائل الاعمال ، قال مرة لابنته في هذا الشأن «قد يعجب الانسان اذا علم كم يستطيع ان يعمل اذا ظل واقفاً يعمل ! ..» وهكذا كان يعمل ...

ينهض باكراً مع ظهور الشمس ويأخذ بقراءة وكتابة الرسائل وغيرها حتى اذا اتت وجبة الصباح تناولها وعاد الى القراءة نحو نصف ساعة ، ثم يخرج في نزهة حول المزرعة او الى الجامعة والحديقة ويعود الى ممارسة احد الاعمال الطارئة في غرفة العمل ، من الواحدة الى الثالثة بعد الظهر يجب ان يكون على ظهر جواده يتفقد المزارع والحقول ...

بعد تناول العشاء يمضي السهرة يحادث الزوار ويلاعب الاولاد لغاية الساعة التاسعة تقريباً ثم ينتقل الى غرفته فيقرأ ايضاً ساعة او ساعتين وينام .

كان من حسن حظ جيفرسون ان الجامعة قد صرفت ذهنه عن

اكمال القسم الجنوبي من بيته الكبير، الذي لو كان اتمه لكان اثقل كاهله بالديون ! كانت الديون تتراكم عليه وهو لا يدري كيف يقع تحتها ولماذا ... فأخذ يبيع من املاكه القطعة تلو القطعة لايفائها حتى شعر اخيراً انه اصبح فعلا ، ذاك الذي يسميه الناس فقير الارض... يملك ارضاً لا تنتج شيئاً ؛ والواقع ان قرار منع التصدير الذي سنّه هو سنة ١٨٠٨ قد أخره مثلما اخر غيره ، وعادت حرب سنة ١٨١٢ فأتلفت مواسم القطن والدخان اتلافاً تاماً .

في اثناء الحرب المذكورة احرق الانكليز مكتبة الكونغرس فوجد جيفرسون ان الفرصة سانحة لتقديم خدمة فضلى لوطنه ولارضاء دائنيه بوقت واحد ... فباع مكتبته الخاصة ، التي كانت اعظم مكتبة بالولايات بعد مكتبة الكونغرس ، للحكومة وبذلك استطاع ان يدفع القسم الاكبر من ديونه وان يشعر بالراحة .. لكنه لم يكد يتنفس الصعداء حتى تلقى صدمة اقتصادية جديدة كانت افظع ما اصابه في حياته ؛ اذ أفلس عمه القديم ولسون نيكولاس فجأة وكان جيفرسون قد جيّر سنداً عليه بقيمة عشرين الف دولار فصار عليه ان يدفعها هو ... فأسقط في يده ؛ وعزم على بيع مزرعته ودائرته في مونتي سيلو تسديداً للدائنين .. فلم يجد مشترياً ! فطلب من كابل ان يستحصل له على رخصة تخوله بيع ممتلكاته لقاء اصدار اوراق يانصيب فأذن له مجلس الولاية بذلك . فلما ذاع خبر وصول جيفرسون الى هذه الحالة في جميع الولايات هب انصاره العديدون بواسطة الصحف الى جمع الاكتتابات على نطاق واسع واذا به يتلقى من نيويورك ٨٥٠٠ دولاراً ، ومن

فيلادلفيا ٥٠٠٠ ، ومن بلتيمور ٣٠٠٠، ثم ١٠٠٠ إلى ان وفى ما عليه بسلام ...

كان مجيء لافايت الى مونتي سيلو للزيارة سنة ١٨٢٤ ، اسعد حادث اختتم جيفرسون به حياته ؛ جلس الرجلان يتذكران عبر التاريخ وجهادهما المتواصل منذ الثورة؛ الاول في السابعة والستين والثاني في الحادية والثمانين – لكن نظرتها الى الحياة وواجباتها ما برحت هي هي ...

بدأ جيفرسون يشعر ان عمره يكاد يكتمل . سأله ادامز اذا كان يود ان يحيا عمره مرة ثانية فقال انه يريد . لانه يعتقد انه صرف زمانه نافعاً ومفيداً على احسن ما كان يتصور . صحيح انه تعرض لجملة انتقادات لكنه تحملها بصبر ، وقد اثبت الزمن انها لم تكن في محلها .

قال انه يخاف شيئاً واحداً ... ان يعيش عمراً طويلا جداً فيهرم ويخرف ويصبح كلامه الذي كان دائماً رصيناً اضحوكة في افواه العابثين ...

كان مرة يتمشى على شرفة خشبية امام بيته فمالت خشبة بالية من تحت قدميه فهوى الى الارض وكسر ذراعه اليسرى ، كانت اللطمة وذيولها من عوامل مضاعفة ضغط امراض الكبر التي لازمته لعهد قريب ، فلم يستطع الحركة ولا السير الا بضع خطوات ... لكنه كان يصر على الركوب ... اذ ان يوماً عنده بدون ركوب كيوم بدون شمس . وقد بلغ من حيطته ان كتب العبارة التي ينبغي ان تحفر على قبره ... ، كتبها خالية من ذكر أي شيء

من عشرات الالقاب والمناصب الكبرى التي نالها وشغلها في حياته ! ولم يشأ ان يذكر سوى الامور التي تهم المستقبل ، فرئاسته ومناصبه قد مضت ، ولكن الاشياء التي تركها ، تركها للمستقبل ، وهي التي ارادها ان تكتب على قبره ...

هنـــا يرقد

توماس جيفرسون

منشىء وثيقة اعلان الاستقلال

محرر دستور فرجينيا للحرية الدينية

مؤسس جامعة فرجينيا

في الثالث من تموز سنة ١٨٢٦ تمدد جيفرسون على فراشه ينازع الموت . كان آخر ما شغل فكره ، من يأخذ مكانه في السهر على جامعة فرجينيا ، كان يريد ماديسون ، وقد ارتاح عند هذه الفكرة ، مضى للآن خمسون سنة والمستعمرات تكاد تعلن ثورتها للعالم . اخذ يستعيد كتاباته .. ويتكلم عن لجنة السلام ، قال : « لتكن اللجنة على حذر ... »

في الليل عاد جيفرسون يقلق ويردد افكاره . قال « اليوم هو الرابع .. » يقصد الرابع من تموز اي عيد الحرية فـــلم يشأ الحاضرون ان يجيبوه بالنفي لانهم علموا ماذا يريد . لكنه عـاد وقال : « هذا هو الرابع ... » اجابه صهره نفياً فقال : « آه » . كانوا في وشنطون يعيدون الذكرى الخمسين لاعلان الحرية وكان هو قد اعتذر عن الحضور كضيف شرف إذ انه في اليوم ذاتـه

شاء ان يصفي حسابه مع التاريخ ؛ وهكذا تمدد غائباً عن الوعي حتى الساعة الواحدة من بعد ظهر الرابع من تموز سنة ١٨٢٦ حيث انتقل الى الرفيق الاعلى ... في اليوم نفسه مات جون ادامز على فراشه في مستشوست عن ٩١ عاماً وكانت آخر كلمة قالها :

« لا يزال توماس جيفرسون حياً ! »

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرست

	صفحة
عالمان	٧
في كلية « وليم وماري »	١٥
بلينـدا والقانون	٢٠
مجلس ممثلي فرجينيا	٢٤
الارض والعروس	٣١
هل الاميركيون انكليز ؟	٣٤
اعلان الحرية	٤٠
الثورة الفكرية	٤٨
حاكم زمن الحرب	٥٨
العودة الى الميدان	٦٧
فرنسا	٧٢
العائلة في الخارج	٧٥
حكومة جمهورية	٧٧
الخلاف في الوزارة	٨٩
فرنسا ام انكلترا ؟	٩٩
جيفرسون للرئاسة	١١٠
في آخر ايامه	١٢٤

obeikandl.com